

ابراهيـم المصـري

ابراهيم المصري، الكاتب، الانسان

بقلـم نقـولا يوسـف

* * *

كلما سألت نفسي عن سبب تريثي في الكتابة عن الاديب المعاصر الكبير، والصديق الوفي القديم ابراهيم المصري وقفت دائما عند جواب ذي شطرين ، أحدهما : ان مقالة مهما طالت لا تسع حياة أشبه بالشجرة الشامخة العتيدة ، وأدبا كالاغصان المتشعبة المديدة ، الا أنها شجرة تعلو كل يوم وتزهر ، وترتجي وتثمر .. حياة تيعنت في الطول على الستين ، وفي العرض على المئتين .. وأنتجت من ثمار الكتب ما أربى على الثلاثين .. واختزنت عاطفة مشبوبة لم تزل في رونق العشرين ! «حياة أديب أعطى الحياة الادبية كل جهده ونشاطه ، وظل لمدى نصف قرن يغذيها بقصصه ومقالاته ومترجماته ودراساته» .

وثانيهما : ان مريديه ما برحوا يتوقعون ان يصور لهم هذا الكاتب الصريح ، بقلمه البارع الخبير ــ قصة حياته ، وكفاحه وخبراتـه ، وذكرياته واعترافاته ــ في كتاب لا يلبث أن يصبح مرجعا أصيلا في تاريخ الحركة الثقافية العربية في نصف القرن الاخير .. وكان قد شرع منذ عهد قريب في نشر البعض من هذه التجارب والذكريات تارة في مقالة ، وأخرى في قصة او في حديث صحفي يمليه ..

ثم طرب قراؤه يوم أخرج لهم الاديب الفنان ، فوزي سليمـان (في ديسمبر ١٩٦٥) كتابا عن « ابراهيم المصري وأدبه ــ دراسة تحليلية » .. وجاء الكتاب في ثمانين صفحة ، ومع ذلك ختمه مؤلفه بقوله : « ان الكلمة الاخيرة عن ابراهيم المصري لا يمكن ان تحققهـا دراستنا المتواضعة هذه ، لان الكاتب ما يزال يبدع وينتج ، وهو قد يتطور ايضا وتبرز فيه امكانيات جديدة تقتضي من الناقد المتنبه اليقظ بحثا أوفى وأشمـل » .

ولقد بدأت صلتي بالكاتب ابراهيم المصري ، في القاهرة ، حيث ولد ونشأ ، وكتب واشتهر ، وما زال بها مقيما لا يبرحها الا فيما ندر..

وكان ذلك في العشرينيات التي أعقبت ثورة عام ١٩١٩ .. وكان طبيعيا ان نتعارف ونتآلف في تلك الفترة الانتقالية التاريخية ، التي انتفض فيها الشعب بأسره ، وانطلق من عقاله ، كما تنطلق الطيور الحبيسة الى الفضاء الرحيب ، مضطربة بين أشياء كثيرة فوتها عليها القيـد الطويل الامد .. وكنا في زهرة العمر وفسحة الامل ، نعيش مع عاصمة صارخة تعاني مخاضها . نصحو على شعارات الحريـة والاستقلال ، وهتافات بسقوط الاحتلال والاستغلال . ونضحى على مصادمات بيـن الرجعية الجامدة ، وبين التقدمية الصاعدة . ونمسي على اجتماعـات ومجالس وبعكوكات ، يضم بعضها المجددين الثائرين من أهـل القلم والساسة والفنانين ، ويلم البعض الاخر أهل القديم المستكينين مـن المحافظين والرجعيين والنفعيين .. وفي احدى ندوات أصحاب الجديد في قهوتهم ، وكانوا يطلقون عليها اسم : « مدرسة الادب الحديـث » عرفت ابراهيم المصري ، الفتى الثائر والاديب المكافح .. وظلت صداقتنا الى الساعة متجددة ، لم تبلها صروف الزمان وتغيرات المكان !.

اما حياته فقصة عنوانها : « الكفاح » كفاح الفقر ، وكفاح المرض، وكفاح الرجعية والجهل .. فقد قدر له ان يعيش فقيـرا مستورا ، ومريضا متداويا ، ومفكرا سابقا لعصره ، واستطاع بارادته ان يتغلب على هذه العقبـات ..

ولد ابراهيم المصري بالقاهرة في ٢١ نوفمبر ١٩٠٠ ونشأ في حي « القبيسي » بالفجالة ..وكان لهذا الحي الشعبي العتيق أثر عميق في نفسه ، وكثيرا ما انعكست انطباعاته على مقالاته وقصصه .. وشـب في أسرة طيبة متوسطة الحال يعولها والد موظف بالمحكمة المختلطـة ذو مرتب صغير ، توفي تاركا في مهب الريح عددا من الصبية أكبرهم ابراهيم التلميذ بالمدرسة فخرج منها ليعول نفسه وأسرتـه ..

وكان هذا الوالد مولعا بحفظ الشعر العربي القديم ، والتحدث عن المتنبي والبحتري وابي تمام ، يتلو أبياتهم بين الحين والحين .. وكان ابنه ابراهيم يصغي اليه وهو ينشدها بطريقته الخاصة ، فتتفتح بذور الملكة الادبية الكامنة في نفسه منتظرة الري والسقي لتنمـو وتزدهر .. « وقد أشاع في ميل أبي الى قول الشعر وتحدثه الدائـم عن الشعراء شغفا بالادب ألهبته في نفسي مطالعة القصص البوليسية اولا ثم القصص الادبية التي كانت تنشرها مجلات ذلك العصر ولا سيما « مسامرات الشعـب » » ..

وكان قد أدخل بأحدى المدارس الفرنسية بالقاهرة حيث تلقـى دراسته الابتدائية وبخاصة مبادىء العربية والفرنسية ، ثم انتقل منها الى « كلية الخرنفش » ليتلقى المواد التي تؤهله للحصول على شهادة الدراسة الثانوية المتوسطة (الكفاءة) وكان بين معلميه هناك أستاذ أديب هداه الى مؤلفات كتاب الادب الفرنسي الكبار فاولع بفلوبيـر واميل زولا وبلزاك وموباسان وستندال من القصاصين ، وبأعمال بسكال وفولتير ومنتسكيو وروسو من المفكرين ، مما فتح عينيه على أضـواء جديدة للفن والفكر .. ثم أخذ يطالع روائع المسرح العالمي مما خلفـه الاغريق وشكسبير وجيته وراسين وأبسن .. وهكذا اقترن في ذهنـه حب الفكر بحب القصة وشغلته هذه المطالعات عن مواد مدرسته المؤدية الى النجاح في الامتحان ، ولم يظفر بهذه الشهادة ، ووقف في التعليم المدرسـي عنـد هـذا الحـد ..

وخرج أديبنا يبحث عن مورد للعيش ، وليستكمل في جامعـة الحياة ما فاته من خبرات ودراسات .. ووجد بعد عناء وظيفـة فـي « البنك العقاري المصري بالقاهرة » مدونا «للكوبونات » .. وظل عدة أشهر يغالب رتابة العمل اليومي وقيد الوظيفة وذلها ، ويفر أحيانا الى كتاب ادبي او قصة يخفيها في درج مكتبه ، ولكنه لم يستطع ان يغافل عين رئيسه في المصرف طويلا ، ولم ير هذا في تلك الكتـب التـي يكدسها في مكتبه غير ملهاة لا تمت لاعمال المصرف بصلة فحذره مرة وأخرى ، وانتهى الامر بفصله ..

وظل أديبنا ثلاث سنوات متعطلا يبحث عن عمل ، ولكنه لم يضع هذه السنوات هباء .. فكان يذهب كل صباح الى دار الكتب بناحية « باب الخلق » بالقاهرة ، ويكب على المطالعة والتثقف بالمجان . وفي الظهر ينتحي مكانا من مطعم شعبي يقدم الفول ، ثم يعود الى دار الكتب ويلزمها حتى توصد أبوابها .. وأما الليل فالى بعكوكات الادباء ومقاهي الفنانين ، والى « مدرسة الادب الحديث » !..

وكانت تلك الجماعة التي أطلقت على منتداها « مدرسة الادب الحديث » تضم عددا من الادباء الشباب الداعين الى التجديد في الادب العربي ، والخروج به الى الميدان العالمي ، والاحتفاظ بروحه القومي ومظهره المحلي الشعبي .متسابقين الى قراءة أهم المؤلفات في الادب الاوروبي الذي يطمحون الى مناقشته ..

وظل أفراد هذه الجماعة يجتمعون (فيما بين ١٩١٨ و ١٩٢٥) في المقاهي والبيوت ويتفرقون ، ويتناقشون فيما طالعوه من كتب انجليزية وفرنسية ، وما ترجم اليهما من قصص روسية وألمانية . وينشرون في بعض الصحف محاولاتهم في القصة القصيرة والنقد الادبي .. وفي مقدمتهم : الكاتب المسرحي محمد تيمور (حتى وفاته عام ١٩٢١) ، وأحمد خيري سعيد (المتوفي عام ١٩٦٢ وكان قد هجر مدرسة الطب الى الصحافة وترك الكثير من القصص والمقالات منشورة في الصحف والمجلات ، وأطلق عليه لقب « ناظر المدرسة ») ، ومحمود طاهر لاشين (مهندس التنظيم المتوفي عام ١٩٥٤ وصاحب مجموعات قصصية تصور المجتمع المصري ومنها «يحكى ان » و « حواء بلا آدم » وغيرهما) .. ودكتور حسين فوزي (الفنان العالم الرحالة ـ صاحب عدد من المؤلفات في الموسيقى والتاريخ والرحلات) .. وحسن محمود صاحب قصة « الجدة الصغيرة » وغيرها ، وابراهيم المصري .. وآخرون ..

وبدأ هؤلاء الادباء ينشرون بواكير نتاجهم في صحيفة « السفور » التي ظهرت عام ١٩١٥ وفي بعض الصحف الصغيرة ، ثم انشأوا لهم مجلة اسبوعية باسم : « الفجر » ظهر عددها الاول في يناير ١٩٢٥ .. ونشر بها أيضا الى جانب الرواد السالفي الذكر : محمود تيمور ، ويحيى حقي ، وابراهيم ناجي ، وفرج جبران وغيرهم . ثم توقفت المجلة بعد ان تكبدت خسائر مالية ..

وقد سجل بعض الكتاب في السنوات الاخيرة ذكرياتهم عن هذه المدرسة وأدبائها ومنهم يحيى حقي في كتيب نشره بعنوان « فجر القصة المصرية » .. والدكتور حسين فوزي في مقالة طريفة بجريدة الاهرام جاء بها :

« لم يطلقوا على جماعتهم اسم « المدرسة الحديثة » تزعما ولا تحديا وادعاء ، بل تندرا وسخرية بأنفسهم وتعاليمهم الثائرة . فهم مدرسة السخرية بالحياة البرجوازية الرتيبة ... مخلصون لما كانوا يسمونه المثل العليا في الفن والادب ، يطالعون ويناقشون الادب الروسي العظيم قبل الثورة البلشفية ، ويبحثون عبثا عما جاءت به تلك الثورة من أدب جديد ... ثم ينصرفون الى الآداب اليونانية القديمة والانجليزية والفرنسية والالمانية .. كلهم نشأوا على معرفة قويمة بأدبهم العربي ، ينادون بتجديد أنماطه وقوالبه مع الاحتفاظ بسلامة اللغة ، وان ذهب بعضهم الى المطالبة بالتحرر من قيود الفصحى في الرواية العصرية او على الاقل في لغة الحوار...مجهولون مجهولون ينزعون في انطلاق فكر عجيب نحو التجديد في شتى مظاهر الحياة المصرية ، ويتفلون بتاريخ بلادهم كله : فرعونيا وقبطيا واسلاميا .. يشنون حملات للاصلاح في صحف هزيلة منزوية ... وتهاجم أساتذة الجيل الكبار دون ان نقرأ لهم شيئا وهم لا يحسون بوجودنا ... »

وبينا كان ابراهيم المصري يتنقل كالطائر الشريد بين تلك الندوات والجماعات ، وبين دار الكتب ومسارح التمثيل ، اذا بالقدر يفجأه بموت شقيقه الاصغر عقب مرض صدري وكان يعمل مدرسا في احدى المعاهد الفرنسية بالقاهرة . وجاءه مدير هذا المعهد وطلب اليه ان يشغل هذا الفراغ الذي تركه أخوه في منتصف العام . ودفعته الحاجة الى قبول هذه الوظيفة على مضض .. واشتغل بالتدريس في ذلك المعهد حوالي ست سنوات (١٩٢٤ ـ ١٩٣٠) .. ولكنه لم ينقطع خلالها عن المطالعات ، كما حاول ان يكتب بعض القصص والمقالات ، ويرسلها الى بعض الصحف والمجلات ، كان منها السفور ، والفجر ، ثم البلاغ اليومي والاسبوعي ..

ثم حدث ان اختلف مع مدير هذه المدرسة على الاجر .. فتركها ولم يعد بعد ذلك الى مهنة التدريس .. وتعطل فترة حتى ارسل اليه صاحب البلاغ ـ الذي عرفه من مقالاته التي نشرها له ـ يطلبه للعمل محررا بجريدته ..

الصحفي الاديب

ولنرجع لحظة الى عام ١٩٢٠ ـ والشاب ابراهيم المصري ابن العشرين ـ يعاني أزمة باكرة في حياته المليئة بالشدائد والازمات .. كان يبحث عن مورد للرزق ، وكان فقيرا مفلسا ويعوزه الجواز المدرسي « الشهادة » التي تؤهله لاحدى الوظائف . وكل ما يملك في دنياه قلم أديب فنان طموح لا يشفع في غير عمل صحفي عدته القلم وحده .. وكان من الصعب فيما مضى ان يعيش الاديب من أدبه ، ولهذا اشتغل معظم حياته بالصحافة ليعيش وان كان أديبا قبل ان يكون صحفيا ..

واذا بصديقه الكاتب احمد خيري سعيد يهبط عليه في القهوة ويبشره بالعثور على عمل لهما بجريدة « الامة » بالاسكندرية .. فليعد أمره للسفر اليها في صبيحة الغد .. وحمل الزميلان قلميهما وارتحلا. وكانت جريدة « الامة » هذه تصدر هناك منذ ان انشأها المرحوم توفيق طنوس عام ١٩١٥ ثم اتخذها عبداللطيف الصوفاني من زعماء « الحزب الوطني » عام ١٩٢٠ لسانا لحزبه .. واشترك الاديبان في تحرير بعض أبوابها مع رئيس تحريرها سعيد طليمات ، وكتابها : العرارجي ، وسليمان حافظ وعوض جبريل .. وعكفا على العمل أياما ثم طلبا مبلغا من المال (تحت الحساب) يستعينان به على العيش ، فنفحتهما ادارة الجريدة ستة قروش ، واتضح لهما ان الجريدة تعاني مثلهما أزمة مالية ، واشترى الاديبان بهذه القروش مقدارا من الفول السوداني سدا به الرمق وهما يتمشيان على شاطىء البحر ، ويتناقشان في تجديد الادب .. ولما عادا مرة أخرى يطلبان نقودا استمهلهما مدير الصحيفة ، فثارا واعتزما على الرحيل .ولما لم يكن معهما أجر السفر باعا شيئا من ملابسهما وكتبهما ، وعادا الى القاهرة يبحثان عن عمل ..

وبعد لأي عثر الزميلان على عمل بجريدة « المنبر » اليومية بالقاهرة ـ وكانت صحيفة قديمة أسسها عام ١٩٠٦ المرحومان محمد مسعود وحافظ عوض .. ثم أصدرها الاديب جورج طنوس ـ وكانت ايضا في ضيق مالي ، فامتثلا لحكم القدر وقبل كل منهما مرتبا شهريا قدره اربعة جنيهات كانا يتقاضيانه ريالا بعد آخر .. ولما عجزا عن الصمود ، خرجا الى التعطل ، وعاد ابراهيم المصري الى قواعده بدار الكتب يقضي سحابة يومه في مطالعات لا حد لها ..

وما كاد مسرح رمسيس يبدأ بالقاهرة حركته التمثيلية في اوائل ١٩٢٣ ويجمع اليه عددا من مهرة الممثلين ومؤلفي التمثيليات ومترجميها حتى اجتذب اليه ابراهيم المصري فكان اول من قدم الى هذا المسرح تمثيلية مؤلفة تنقد المجتمع المصري المعاصر ، وهي روايته « الانانية » التي مثلتها فرقة رمسيس عام ١٩٢٣ ، وأتبعها برواية « الفريسة » فمثلت بعدها .. ثم بمسرحيته « نحو النور » التي لم تمثل ـ كما سيلي ـ وكان أديبنا يامل ان يعيش بقلمه القدير من التاليف للمسرح، ولكنه عرف بعد تجربة ان مسارح عصره بالرغم من نهضتها هذه ، لا تغني الكاتب من جوع ..

وفي تلك الفترة رأس ابراهيم المصري تحرير مجلة « التمثيل » الاسبوعية التي صدرت بالقاهرة عام ١٩٢٤ ، وأخذ ينقد بها المسرح وتمثيلياته ، وممثليه وممثلاته ، ويكتب المقالات الادبية ويترجم اشعار

تاجور .. وكتب معه زكي طليمات في هذه الصحيفة تحت اسم مستعار، كما نشر بها توفيق الحكيم بعض بواكير مقالاته عن صفات الكاتب المسرحي ، وعما اذا كانت غاية التمثيل الاصلاح الخلقي .. وأوحت هذه الصحيفة النقدية الى بعض نقاد المسرح باصدار صحف مماثلة ، فظهر في العام نفسه (١٩٢٤) عدد منها يحمل أسماء : التياترو ، والفنون ، والموسيقى والمسرح ، وفي العام التالي (١٩٢٥) صدرت مجلة « المسرح » لعبد المجيد حلمي ، الى آخر الاسماء المتوالية حتى اليوم ..

ولما لم يجن ابراهيم المصري من عمله الصحفي والمسرحي شيئا يذكر ، فقد قبل الاشتغال بالتدريس ـ كما سلف ـ مكان أخيه الراحل، وبقي في هذه المهنة ست سنوات ، كان خلالها يبعث بقصصه ومقالاته الى بعض الصحف وعلى رأسها جريدة « البلاغ » ، ومن ذلك مقالته عن الشاعر الهندي تاجور يوم جاء الى القاهرة عام ١٩٢٦ فنشرتها «البلاغ» على صفحتها الاولى وكانت أول مقالة تحليلية عن هذا الشاعر الكبير تنشرها الصحف العربية .. وهنا عرف صاحب الجريدة كاتبنا وأعجب بقلمه ، فما كاد ابراهيم يخرج من تلك المدرسة التي يعلم فيها عام ١٩٣٠ حتى أرسل اليه أحد محرريها يطلبه الى الانضمام لاسرة البلاغ ، وليظل هناك اكثر من ثماني سنوات .

وكان الصحفي المعروف المرحوم عبدالقادر حمزة قد أصدر بالقاهرة في يناير ١٩٢٣ جريدة يومية باسم « البلاغ » ، وألحقها في نوفمبر ١٩٢٦ بصحيفة اسبوعية كبيرة اختصها بالآداب والفنون والعلوم سماها « البلاغ الاسبوعي » .. وحشد لتحريرهما اقلاما معروفة تشترك معها جهود الادباء الهواة ، وكان في مقدمة محرريها : الاستاذان عباس محمود العقاد ، وأحمد حافظ عوض .. وكان الاول ينشر مقالاته السياسية في « البلاغ » اليومية منذ بدء ظهورها ، والمقالات الادبية ومنها « ساعات بين الكتب » منذ صدور « الاسبوعي » كما حرر بهما : سلامه موسى ، وابراهيم المازني ، وزكي مبارك ، ومحمد لطفي جمعه ، ومصطفى الرافعي ، وحبيب جاماتي ، وابراهيم المصري . وفي صفحة المسرح : محمد علي غريب ومحمد علي حماد .. وراجت الصحيفتان في معظم حياتهما بسبب تلك الاقلام البارعة ، ولمناصرتهما لحزب الوفد وزعيمه المغفور له سعد زغلول .. وراح ابراهيم المصري يكتب في هاتين الصحيفتين ، الدراسات الادبية والنقدية ، والتراجم وملخصات الكتب العالمية مما جمع بعضه في كتبه المنشورة وقتذاك : « الادب الحي » ١٩٣٠ و « الادب الحديث » ١٩٣٢ و « الفكر والعالم » ١٩٣٣ و « صوت الجيل » ١٩٣٤ و « وحي العصر » ١٩٣٥ ثم « مختارات عالمية من الشعر الغرامي » ١٩٣٨ ..

ووجد ابراهيم المصري على صفحات البلاغ اليومي والاسبوعي ، ميدانا فسيحا لآرائه الحرة ، ولنزعته التجديدية ، ودعوته الاصلاحية ، فقد كان عبد القادر حمزه يجمع في شخصه بين الكاتب السياسي والاديب الباحث ، وكان من رأيه ان لا تقتصر الصحيفة على السياسة والخبر ، بل تشمل ايضا مختلف فروع الثقافة فافرد صفحة للآداب وأخرى للفنون وللاقتصاد وللمرأة .. ثم كان يشجع المساجلات والمناظرات في جريدته ، حتى بين محرريها الهابا لحاسة الفضول لدى القراء .. وأسهم ابراهيم المصري في تلك المساجلات الادبية ، وكثيرا ما كان هو وزميله في الغرفة سلامة موسى يناوشان بحملاتهما التجديدية بعض الكتاب المحافظين مثل زكي مبارك والرافعي وغيرهما ..

وهناك خارجا كانت تدور المناقشات القلمية بين صحيفتي البلاغ وبين جريدتي السياسة اليومية والاسبوعية ، وكانت اولاهما قد صدرت عام ١٩٢٢ والثانية في مارس ١٩٢٦ ، وكان كلاهما لسانا لحزب « الاحرار الدستوريين » ويكتب فيهما الدكتور محمد حسين هيكل رئيس التحرير ، والدكتور طه حسين ، ومصطفى وعلي عبدالرازق وعبد العزيز البشري ، وعبدالله عنان ، وزكي عبدالقادر ثم انضم اليهم ابراهيم المازني .. الى جانب عشرات الكتاب غير المحترفين ..

وكانت هذه السنوات التي أمضاها ابراهيم المصري بجريدة البلاغ من أخصب سني حياته الادبية ، وأوفرها انتاجا .. ولكنها لم تدم طويلا .. اذ عاشت هذه الجريدة وسط الاعاصير السياسية والخصومات الحزبية التي عصفت بالكثير من صحف ذلك العهد .. وقد أنشئت « البلاغ » لتكون لسان حزب الوفد ، وما كادت تبدأ حملاتها على الاحتلال الانجليزي وأعوانه منذ صدورها حتى اعتقل صاحبها وأغلقت جريدته بعد شهرين ..ثم أفرج عن الجريدة وصاحبها بعد ثلاثة اشهر من الاعتقال .. وراحت البلاغ تشن حملاتها على الاحزاب غير الوفدية ، واصطدمت بجريدة « السياسة » .. وعندما اختلف صاحبها مع النحاس باشا رئيس الوفد بعد وفاة الزعيم سعد زغلول ، بدأت الجريدة معاركها القلمية مع الصحف الوفدية ، واتخذت سياسة مستقلة وتأزمت حالها المادية ، وخرج معظم محرريها يبحثون عن العمل في صحف أخرى من اجل العيش .. وتركها ابراهيم المصري كما دخلها خاوي الوفاض .. وكان في وسعه لو غامر في معترك السياسة الحزبية وجرد قلمه في ميادينها ، ان يحرز ثروة كما فعل غيره ، ولكنه آثر ان يربأ بنفسه عن ذلك ، وأن ينقطع عن لغته وأدبه ولو عاش ومات فقيرا ..

وتوفي عبد القادر حمزه في يونيه ١٩٤١ ، وخلفه ابنه المرحوم محمد عبد القادر حمزه على رئاسة تحرير البلاغ حتى أغلق ابوابه كما أغلقت جريدة السياسة وغيرها .. وتحولت مجلداتها الى دور الكتب يردها اليوم الباحثون والمؤرخون والناقدون ..

وكان ابراهيم المصري منذ عام ١٩٣٤ يكتب أيضا بمجلة «الاسبوع» الادبية التي كانت تصدر اولا منذ مايو ١٩٢٦ باسم المرحوم ابراهيم عبد القادر المازني .. ثم تنازل عنها للاديب ادوار عبده سعد ـ وكان محررا لمجلة « الفكاهة » احدى مجلات « دار الهلال » ـ فتركها ليصدر « الاسبوع » في ثوب جديد ، وكان الصحفي الاديب اسعد حسني سكرتيرا لهذه المجلة ، فاستكتب عددا من كتاب عصره فنشروا بها القصص والمقالات ، ومنهم الكاتبة مي زيادة . وكانت لابراهيم المصري بها عدة ابواب يقوم بتحريرها منها : « أصداء العالم » والبريد الاوروبي ، وباب النقد .. وشاء صاحبها التوسع فاشترى لها مطبعة بالدين ولم يستطع سداده فباع المجلة ومطبعتها ، وما عتمت ان أغلقت أبوابها ..

وازاء هذه التجارب رأى ابراهيم المصري ان يحقق حلما قديما ، ويصدر مجلة ثقافية يكون هو صاحبها ورئيس تحريرها ، وظهرت هذه المجلة بعنوان « الادب الحي » في أول مارس ١٩٣٧ مصدرة بهذه الكلمة التي تعبر عن أهدافها وآمال صاحبها :

« سبيلنا : ـ هذه مجلة الفكر الحر والرأي الصريح . أنشئت لتكون صحيفة الجيل الجديد من الادباء ، تقدم شخصياتهم ، وتكشف عن أعمالهم ، وتتيح لهم جميعا فرصة التعبير عن آرائهم في جرأة ونزاهة وصدق . فكل أديب مستنير الذهن ، متحرر الفكر ، عصري النزعة ، لم يشخ عقله وقلبه ، يجد في هذه المجلة ميدانا رحبا لملكاته ومواهبه . وكل أديب فهم الادب على اعتبار أنه رسالة سمو نفساني ، ورسالة اصلاح اجتماعي ، يجد في هذه المجلة القوة المعنوية التي تساعده على القيام بواجبه وتأدية رسالته . فحرية الفكر ، وحرية التعبير والجهاد الحق ، يقوم به الشاب المثقف الموهوب لتجديد الادب المصري والمجتمع المصري هي الغايات التي تنشدها هذه المجلة وهي سبيلنا التي لن نعدل عنها ما دام في الصدر نفس تتردد ، وفي القلب مسكة من حرارة وحياة . »

وقد لبى أصدقاؤه الكتاب نداءه فنشروا بها المقالات والقصص والقصائد ، وظهرت بها الى جانب قلم صاحبها أقلام : محمود تيمور ، وابراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، ومحمد امين حسونة ، ونقولا الحداد ، ومحمد علي ثروت ، وسليم سعده ، ومحمود الشرقاوي

وغيرهم . وللاسباب المادية المعهودة توقف صدور هذه المجلة بعد ان صدر منها نحو عشرة أعداد ..

ودعي ابراهيم المصري لرئاسة تحرير مجلة « الهلال » الشهرية ، فكان يكتب بها مقالة بتوقيعه وغيرها بلا توقيع ، غير أبواب المجلة العامة .. كما كان يكتب في مجلة « المصور » الاسبوعي وغيرها من مجلات دار الهلال ، او يترجم بها موضوعات منوعة .. وترجم ثلاثة كتب عن الفرنسية أهديت الى قراء الهلال وهي : « تاريخ الحب » لمارسيل تينير (١٩٣٧) ورواية « الماضي الحي » لموباسان (١٩٣٧) و « مختارات عالمية من الشعر الغرامي (١٩٣٨) ودام هذا العمل المضني بدار الهلال حوالي سنتين ..

وهنا وقعت المأساة التي قاسى منها الامرين فقد أسرف أديبنا في الاجهاد الذهني ، وفي التهافت على الكتابة والمطالعة ، فانهارت أعصابه ولم يعد في مقدوره ان يقرأ او يكتب .. فهجر القاهرة وترك القلم ، واستقر بضاحية « عزبة النخل » في أطراف القاهرة . وظل أربعة أعوام يعاني وطأة المرض ، وذهنه عاجز كل العجز عن كتابة أي سطر او قراءة أي عنوان ، ولكنه صبر وتحمل ، وصمد لا على العجز الذهني فقط ، بل على الفقر والبؤس أيضا فباع أثاث بيته وباع مكتبته الكبيرة ليأكل ويعالج ، ولم يعن به أحد خلال تلك السنوات المريرة غير زوجته الطيبة الوفية .. حتى ارتدت اليه قوى ذهنه شيئا فشيئا وخرج من المأساة ظافرا ..

وعندئذ وحينما استطاع ان يمسك القلم ، طلب اليه ان يحرر بجريدة « اخبار اليوم » ، وبدأ منذ ذلك العام (١٩٤٢) - وما برح حتى اليوم - يكتب في صحف تلك الدار : الاخبار اليومية ، وفي اخبار اليوم ، وآخر ساعة ، والجيل - الاسبوعية .. وهناك نشر القصص والمقالات ، وأفرد له باب بعنوان : « قلوب في البريد » يجيب فيه على اسئلة القراء ومشاكل الاسرة في أسلوب يجمع بين عظة المجرب الحكيم ، ودقة العالم النفساني .

الكاتب المسرحي

وعاصر ابراهيم المصري نشأة المسرح العربي الحديث ، وتطوره ، ومده وجزره . وتردد على مسارح القاهرة كبيرها وصغيرها ، واندمج في أوساطها ، وشاهد نوابغ الممثلين والممثلات من الشرقيين والغربيين.. ثم عرف منهم وصحب الكثيرين .. فكان صديقا لجورج أبيض وسيد درويش وعزيز عيد وزكي طليمات وغيرهم من كبار الفنانين ... ولخليل مطران ومحمد تيمور وابراهيم رمزي من الكتاب المسرحيين .. وكان المسرح مدرسة ليلية يقضي بها أجمل الساعات ، كما كانت دار الكتب مدرسته النهارية يقضي بها أثمن الساعات .. وراح يقرأ تمثيليات أبسن وهنري بيك وبيورسون الى جانب روائع شكسبير وموليير وراسين .. ثم يجول في ميدان النقد الفني وينشر انطباعاته عما شاهد وقرأ في الصحف وبمجلة «التمثيل» (١٩٢٤) التي كان يرأس تحريرها..

وكانت بالقاهرة منذ فترة الحرب العالمية الاولى وفي أعقابها ، حركة مسرحية تحتذي المسرح الاوروبي ، وتعرب رواياته او تقتبسها ، وتتأثر الجهود السالفة لفرق القرداحي واسكندر فرح وسلامه حجازي ومن سبقهم .. ومنذ ان عاد جورج أبيض من بعثته بفرنسا عام ١٩١١ الف فرقة بدأت تمثل بالفرنسية فترة ثم كون فرقة عربية من ممثلي الفرق القديمة ومثل معهم روايات عطيل ومكبث وهاملت لشكسبير من ترجمة خليل مطران ، وبعض روايات موليير ورواية لويس الحادي عشر ، وبعض الروايات العربية المؤلفة مثل « الحاكم بأمر الله » لابراهيم رمزي التي مثلتها فرقة أبيض وحجازي بدار الاوبرا في القاهرة عام ١٩١٥ .

وكانت فرقة جورج أبيض تتنقل في البلدان العربية ناشرة الوعي المسرحي أينما حلت. وما لبثت ان تالفت فرقة عبدالرحمن رشدي المحامي عام ١٩١٧ وكان مما قدمته عام ١٩١٨ رواية « العصفور في القفص » لمحمد تيمور .. كما اشتهرت فرق زكي عكاشة ومنيرة المهدية ونجيب الريحاني وعلي الكسار بروايات « الاوبريت » ..

وكان ابراهيم المصري يتنقل بين تلك المسارح العربية وبين الفرق الاوروبية التي تفد في الشتاء الى القاهرة وشهد تمثيل سارة برنار ، وزاكوني ، وجان هرفييه ، وارميتي نوفيللي ، ورقص آنا بافلوفا وعزف هوبرمان .. ويبدي اعجابه أو تنديده ، وأسره اسلوب خليل مطران في ترجماته العربية لشكسبير مما أضفى على تمثيل عملاق المسرح جورج أبيض روعة واعجازا الى حد أنه كان يشهد جورج ابيض وهو يمثل رواية عطيل ترجمة مطران كل ليلة تقريبا حتى حفظ الرواية عن ظهر قلب . كما حفظ فقرات طويلة من روايتيه مكبث وهملت .. وان الروح « الليريكية » التي تشعر بها في مؤلفات ابراهيم المصري ترجع في الواقع الى تأثره بفن شكسبير الذي عبر عنه مطران بالعربية أبدع تعبير.

كما كان للكاتب فرح انطون أثر كبير في توجيه الشاب ابراهيم المصري الى مطالعة المؤلفات العالمية .. واتفق ان سافرا معا عام ١٩٢٠ مع فرقة جورج ابيض الى دمشق في الرحلة الوحيدة التي قام بها ابراهيم خارج الاقليم المصري ، والتي استغرقت شهرا واحدا ، وكانا يعملان في النطاق الاداري للفرقة . وفي هذه الرحلة توطدت الصلة بين فرح وابراهيم وظلا صديقين حتى وفاة الاول عام ١٩٢٣ .. وكان فرح انطون اديبا مستنيرا يقرأ الادب الاوروبي الحديث ، ويترجم روائعه في مجلته « الجامعة » ويؤلف القصص والمسرحيات ويكتب عن المفكرين ، وقضى حياته القصيرة بين الصحافة والمسرح .. فكان يحث صديقه على مطالعة هذا الادب ويعيره مؤلفات الكتاب ، فقرأ ابراهيم الكثير مما كتب روسو وبرناردين ، ونتشه ومونتسكيو وماكس نرداو ، وبردو ... وأضاف اليهم دستويفسكي وغوركي وترجنيف ...وغيرهم.. وكان يناقشه في آرائهم ولم يزل ابراهيم المصري يحفظ لفرح انطون هذا الجميل بقدر ما يحفظ لمطران أثر مترجماته لشكسبير وأثر شعره الخاص في نفسه . وأيضا ما استلهمته من نتشه في ارادة الكفاح ومن انسانية دستوفسكي .

وعندما افتتح يوسف وهبي «مسرح رمسيس» بالقاهرة عام ١٩٢٣، واختار له نخبة من الممثلين والممثلات الممتازين ، تحركت في نفس ابراهيم المصري نزعته المسرحية ، فعكف على وضع المسرحيات التي تعالج الادواء الاجتماعية المتفشية في عصره لتكون صورا واقعية هادفة من نتاج الاقلام العربية الجديدة .. وسط الروايات المترجمة والمقتبسة والعنيفة غالبا، مما هو بعيد عن روح المجتمع الشرقي وعاداته وحاجاته.

وكانت « الانانية » باكورة مسرحيات ابراهيم المصري - درامة في ثلاثة فصول ، مثلت لاول مرة على مسرح رمسيس يوم ١٩ مارس ١٩٢٣ وتقع حوادثها في يوم واحد في قصر أحد باشوات ذلك العهد .. (وقام بتمثيل أدوارها : روز اليوسف وفاطمة رشدي وعزيز عيد وزكي طليمات وحسين رياض ومختار عثمان وغيرهم ..) ثم طبعها المؤلف فيما بعد بذيل كتابه « الادب الحي » عام ١٩٣٠ - في لغة فصحى سهلة - وقدمها بكلمة ضمنها رأيه في التأليف المسرحي ، وهو المذهب الذي سار عليه في سائر تمثيلياته ، قال فيها :

« .. في رأيي ان ليس الفن في التحدث عن أية واقعة او رسم أي شخص ممن نصادفهم رسما فتوغرافيا يبعث الدهشة او اللهو بل في اختيار الحادثة او الشخص ، والنظر الى قيمتهما وما يرسلانه حولهما من أصداء بعيدة الوقع في المجتمع . او بمعنى أوضح اختيار حادثة ذات أثر في حياة الفرد والمجموع معا . وهذا ما حاولته هنا .. اعترضتني مشكلة اللغة ، فوجدتني اذا أنا كتبت الرواية كلها بالعامية ، أفقدتها روح جوها الفاجع وخرجت بها عن نوعها ونزعت منها أهم عناصر المأساة التي لا يثبت الجمال الا في اطارها ، وهي موسيقى الالوان الخالقة بما تحتويه من جلال اللفظ المنسجم ، وروعة التعبير المتغلغل في خفايا العاطفة ، وبهرة الاستعارات الملازمة للاوضاع الوجدانية

المؤثرة بالاجمال كل مميزات تلك الكمية من الحلم الشعري في تخيل الحقائق التي منها ينبع الجمال واليها ينتهي الفن . ثم رأيت من جهة أخرى ان مستلزمات الموضوع الذي اخترته ادماج بعض مشاهد كوميدية خفيفة تتناول وصف الاخلاق السطحية المتواردة في غير دائرة التحليل النفساني ، فلم أتردد في كتابتها بالعامية البحتة حفظا لجوها هي أيضا من الجفاف والثقل والتزييف . قد أكون بفعلي هذا هدمت التناسب الشكلي ومزجت بعضها ببعض الوانا جد متنافرة . ولكني اضطررت لذلك اضطرارا بحكم الوسط المصري نفسه . ثم لقد رأيت ان العبرة بالجوهر أي دقة الملاحظات وعمقها وصدق عواطف الاشخاص وتمشيها مع نفسياتهم بحيث لا يكون هناك تناقض او غش او افتعال ، ذلك ما رسمته لنفسي قبل مباشرة العمل . فهل حققته بتمامه ؟ لا ، وعلى كل فهي محاولة اولى أرجو ان اكون بواسطتها قد وفقت الى المزيد في المحاولات التالية . »

وتعالج مسرحية « الانانية » مشكلة الطلاق وتعدد الزوجات التي كانت يومذاك متفشية بين الطبقات المثرية من أجل اللهو والمتعة .. كما تصور الجيل المصري الجديد الذي نشأ عقب ثورة ١٩١٩ مصطدما في تطوره بتلك الرواسب وبغيرها من العادات الرجعية .. وفي ذلك الصراع الذي تدور حوله « الدرامة » نرى أحد الباشوات الاغنياء المستهترين في سعيه الى الزواج على امرأته من فتاة في مثل سن ابنته ، فتلجأ زوجته الى الانتقام لكرامتها ، وتعرف هذه الفتاة بابن الباشا من زوجة أخرى ، فلا يلبث أن يحبها ويطمح الى الاقتران بها ، وعندئذ يشب الصراع بين والد أناني له زوجة وولد وبين ابنه الشاب المطالب بحقه في الحياة .. ويلجأ هذا الاب الى الايقاع بين ابنه وبين الفتاة ، ويعلنه في الوقت نفسه أنه سيتزوجها . وفي ثورة باكية يخاطب الشاب أباه « لست أبي ! لست منك في شيء .! لسنا منكم ولستم منا .. نحن الحياة وأنتم الموت .. نحن نكره بيوتكم المشادة على سلطة الزوج المستبد ورياء الزوجة ... »

وفي النهاية لا يجرد المؤلف هذا الوالد من كل عاطفة أبوية ، وتغلبه هذه العاطفة ، ويترك الفتاة لولده ويرتحل فترة الى قريته ...

ثم يقدم ابراهيم المصري تمثيلية ثانية الى مسرح رمسيس بعنوان « الفريسة » ـ ماساة نفسية تصور سلطان الرجل المطلق في الاسرة الشرقية وقتذاك ـ وتمثل الصراع بين زوج يرى من حقه ان يطلق امرأته متى شاء بعد أن يستنزف شبابها ويستولدها البنين ، وبين زوجة من الجيل الجديد تطالب بتأمين حياتها وتوطيد مستقبلها في كنف الاسرة .. وفي النهاية نشاهد هذه الزوجة ، وقد رأت زوجها يعذبه مرض مفاجىء ، تشفق عليه وتنزل عن مطالبتها بحريتها وحقها لتؤاسيه وتعالجه في اخلاص تمليه عواطفها واختيارها .. ولم تطبع هذه التمثيلية الى الان ..

وكانت مسرحية « نحو النور » ثالثة تمثيليات ابراهيم المصري التي قدمها الى مسرح رمسيس ولكنها لم تمثل قط .. فقد عرضتها الرقابة يومئذ على اسماعيل صدقي باشا رئيس الحكومة ، فقرأها وأشار بحذف بعض فقراتها التي تتعرض للمطالبة باقرار العدل الاجتماعي بين الطبقات العاملة الفقيرة .. ولم يقبل المؤلف هذا الحذف .. ثم نشرها فيما بعد مع كتابه « الفكر والعالم » المطبوع عام ١٩٣٣ .

وبطل هذه التمثيلية شاب اديب له مبادئه ومثله العليا التي يدعو اليها بقلمه ، ويعيش بسببها فقيرا مضطهدا .. وهو في مطالبته بتحرير الفلاح والعامل والمرأة ، وتأمينهم ضد الفقر والمرض والجهل ، وفي دعوته الى «محاربة التقاليد التي تنمي في الانسان أنانيته الجنائية وتحول بينه وبين تضحية نفسه في سبيل استقلال بلاده ونشر المساواة العادلة بين الناس .. » ـ يصطدم اولا ـ بالبيئة المتخلفة التي ارتفع هو عن مستواها ، وثانيا ـ بعقبة الفقر الذي يكبله ، وثالثا ـ بامرأته التي لا تفهمه وتراه غارقا في أوهام لا تجلب عليه غير البؤس والصعلكة وهي التي تريد ان تعيش كغيرها امرأة في المجتمع ، ورابعا بجماعة الوصوليين الذين يحاولون استغلال حاجته الى المال كي يحولوه عن مبادئه ويضموه اليهم وصوليا خائنا مثلهم ..

ثم وضع ابراهيم المصري مسرحية « العادل » في فصلين ، ومثلتها فرقة فاطمة رشدي على مسرح « حديقة الازبكية » بالقاهرة عام ١٩٤٣ وتصور أزمة وجدانية تولدت في نفس شاب تصطدم مبادئه وآراؤه بحبه وعواطفه . ويريد ان يحقق فكرة العدل ولو بتضحية أبيه . ولم تطبع هذه المسرحية بعد ..

وكانت خامسة مسرحياته « المرأة وشيطانها » ـ درامة في ثلاثة فصو ـ ومثلتها ايضا فرقة فاطمة رشدي عام ١٩٤٤ ـ وهي رواية اجتماعية هادفة . ولم تطبع ايضا ..

وعلى شاشة السينما العربية الناطقة ظهرت له رواية « الحب لا يموت » التي قامت ببطولتها الفنانة راقية ابراهيم ..

ولم يتابع ابراهيم المصري بعدها نشاطه المسرحي ، وانصرف كلية الى القصة القصيرة التحليلية والى الدراسات والنقدات الادبية ، وذلك لما رأى ما أصاب الحركة المسرحية في الاربعينيات من نكسة ..

القصة القصيرة

وكان ابراهيم المصري يكتب قصصه القصيرة وينشرها في الصحف منذ فجر شبابه . ومن تلك البواكير الناضجة قصته « سخرية الميول » المنشورة في ذيل كتابه « الادب الحي » عام ١٩٣٠ ، وقصة «الخريف» في كتابه « الادب الحديث » ١٩٣٢ .

وتواكبت أقاصيصه خلال الاعوام الاربعين الماضية ، وكان يجمع أشتاتها في مجموعات تظهر كل مجموعة منها بين عام وآخر .. وأمامنا الآن من هذه الكتب القصصية المنشورة نحو خمسة عشر كتابا تحمل هذه العناوين :

قصص البطولة والوطنية ١٩٤٣ ـ خريف امرأة ١٩٤٤ ـ قلوب الناس ١٩٤٧ ـ نفوس عارية ١٩٥١ ـ قلوب الخالدين ١٩٥٣ ـ كأس الحياة ١٩٥٥ ـ الانثى الخالدة ١٩٥٧ ـ الانسان والقدر ١٩٥٩ ـ وثبة الاسلام (قصص تاريخي) ١٩٦٠ ـ صراع الروح والجسد ١٩٦١ ـ قلب عذراء ١٩٦٢ ـ عالم الغرائز والاحلام ١٩٦٢ ـ الباب الذهبي ١٩٦٣ ـ صور من الانسان ١٩٦٥ ـ خالدون في الوطن ١٩٦٦ (تاريخي).

والى جانب هذه القصص الموضوعة ، كان يشرك قراءه في متعة الاطلاع على القصص العالمي فلخص الكثير من الروايات الممتازة كما نرى في كتابه « الادب الحديث » ١٩٣٢ .

وتظهر قيمة الكاتب في هذه المجموعات باعتباره قصصيا وفنانا أصيلا يمتاز بنظرة عميقة عن الحياة مستمدة من تجارب كثيرة وملاحظات انسانية دقيقة تهذبها الثقافة ويصقلها الفكر . ويضاعف التحليل النفسي من قيمتها ، ويضع الكثير منها بين الاعمال القصصية الفنية الجديرة بالبقاء .

فهو رائد من رواد القصة العربية المعاصرة ، القصة التي تلمح فيها أطياف ثقافة عالمية تاثرت باكثر من فكر .. وهو أحد المفكرين الذين حملوا المشاعل ويسروا النور لمجتمع ادبي تذبذب في تكوينه الاول بين ميراث عريض من تراث قديم ، وكنز بريقه يفتن العيون ولكنه مستورد من الخارج ..

ويتحدث ابراهيم المصري عن فنه القصصي في أحد أحاديثه الصحفية فيقول :

« ان تاثر القصاص ببعض أقطاب القصة في الغرب ضروري الا أنه في رأيي لن يستطيع ان يكون فنانا أصيلا الا اذا تحرر من ثقافته جهد المستطاع ، وهبط الى أعماق نفسه ، وحاول ان يعرف منزعه هو ومواهبه ومؤهلاته هو ، وان يستلهم كل هذا لابداع عمل مستقل شخصي يميزه عن سواه .. وليست العبرة في القصة بسرد الحوادث

الغريبة ، فمحاضر البوليس مملوءة بالحوادث ، ولكننا لا يمكن ان نعتبرها قصصا ، لان المهم هنا هو الحالات النفسية التي تفضي الى هذه الحوادث » .

ويقول : « القصصي هو الذي يستطيع ان يستشف أسباب الحادثة وعواملها ودوافعها وهو الذي يستطيع ان يصف كل هذا ويحلله في شخصيات تنبض بالحياة .ومن المحال طبعا ان نعرف ما هي النفس البشرية وكيف تتحرك وتتفاعل عواطفها ، الا اذا تثقفنا اولا ثقافة غزيرة ، ثم عشنا حياة زاخرة بالاحداث ، والروائي الحق هو الذي يدرك ان عليه ان يعيش ليفهم الحياة بعد ان يكون قد تثقف ، وان يرتمي بجماعه على النار ليعرف ما هي النار ـ نار الحياة ، بشرها وبخيرها ، بحلوها ومرها ـ مادة القصة هي هذه النار ، وبدون نار لا يتقد اي فن ولا تنبض اية روح.... »

الدراسات الادبية

وكذلك جمع ابراهيم المصري الكثير من مقالاته ودراساته وتراجمه ونقداته في عدد من الكتب ظهر اولها : « الادب الحي » عام ١٩٣٠ ، ثم « الادب الحديث » ١٩٣٢ ، و « الفكر والعالم » ١٩٣٣ ، و « صوت الجيل» ١٩٣٤ و «وحي العصر » ١٩٣٥ و «عشرة من الخالدين» ١٩٦٤.

وقد عالج في كتابه الاول « الادب الحي » بأسلوب تحليلي : شخصية الاديب الفنان ، وبين النبوغ والعبقرية ، وبين العلم والدين ، ثم نقد الادب العربي بمصر في أبحاث عن : « فن القصص في مصر » ، و « شعراؤنا وجنوب الطرب » و « العقلية العربية » ، و « أين هو الادب المصري ؟ » .. وتحدث عن الشعراء تاجور ، ودانوتزيو ، والفريد دي موسيه ، والقصاص دستويفسكي ، وذيل كتابه هذا بأقصوصة موضوعة « سخرية الميول » ..

وفي كتابه « الادب الحديث » تناول بالتحليل والتلخيص بعض المؤلفات الفرنسية المشهورة مثل : ارتقاء المرأة للوسيان رومييه ، والعبقرية والحب لجورجيت لوبلان ، ونظرات في العالم الحاضر لبول فاليري ، ومرض الكلام لاوسيب لوربيه ، وكلمات العصر الحاضر لجستاف لوبون ، وخيانة الكتاب لجوليان بندا .. كما لخص ثماني قصص لبعض كبار القصة بفرنسا مثل اندريه جيد ، وزولا ، وبوردو ، وبول بورجيه وغيرهم .. وذيل هذا الكتاب أيضا بقصة من تأليفه « الخريف » ..

وفي « الفكر والعالم » المذيل بمسرحية « نحو النور » أبحاث عن : الحضارة والآلات ، ومعنى الحضارة ، والفنون في عصر الآلات، والفن والقوة ، وفن الاسلوب ، والمثل الاعلى للفرد .. وعن نهضة الشعب الاسباني ، واضطراب اوروبا . ثم تراجم تحليلية لمارسيل بروست ، وشارل بودلير ، وبيرون ، وانجلو ..

وتكلم في « صوت الجيل » عن : البطولة والعظمة ، والشخصية الانسانية ، والفنان والمرأة ، ونظرات في فن القصة ، والمتعلمون والشعب ، والنقد في مصر ، وجحيم المثقفين . كما بحث في عالم راسين ، والعالم الشكسبيري ، واناتول فرانس ، وتاجور ، ونهضة الصين وأدبها ، واليابان الحديثة ، والاوروبيين وغاندي ، وأفرد فصلا عن ابراهيم ناجي الشاعر ..

وبحث في « وحي العصر » في وعي البيئة والعصر في الادب الحديث ، والصدق في الادب والحياة ، وأدب السرعة ، والانسانية والحب ، والشرق على مذبح الاستعمار . كما كتب عن عدد من كبار أدباء الغرب مثل تولستوي ، وبول بورجه ، وروماں رولان وغيرهم .. ولخص عددا من القصص العالمية .. وترجم لغيرهم في كتابه « عشرة من الخالدين » .

وتمتاز جميع هذه الدراسات الادبية والاجتماعية بروح التجديد في الفكر والحياة ، واصالة الثقافة النابعة من الشرق والغرب ، كما أنها تتناول بالدرس طائفة كبيرة من أعلام الادب والفكر والفن . وقد فتحت هذه الدراسات لناشئة المتادبين عندنا آفاقا جديدة في وسعهم ان يستلهموا منها روائع الفن والفكر ..

الدراسات النسوية

ويلاحظ ان ابراهيم المصري قلما تخلو قصة من قصصه او مسرحية من مسرحياته أو بحث نفساني واجتماعي من الاشارة الى المرأة . وهو في ذلك يرى ان المرأة تمثل دورا رئيسيا بل خطيرا في حياتنا . فهي أمنا واختنا وحبيبتنا وزوجتنا ، والمخلوقة التي نتاثر بها في حداثتنا ورجولتنا . بل هي المخلوقة التي نستوحيها آمالنا وأحلامنا ، فنسعى في الحياة من أجلها ، ونتخذ منها حافزا ومشجعا ، ونهرع اليها ساعة الشدة والالم كي نجد فيها ملاذا لنا وسلوى . وهي قد تعذبنا ولكننا نستمرىء هذا العذاب بل ونطلبه أحيانا يقينا منا أنه يضاعف من تمرسنا بالحياة .. ويضاعف من فهمنا لها واحساسنا بها ويجعلنا نعيش وان كنا نتعذب ونتألم .. وهو يرى ان الصراع قائم بين الرجل والمرأة منذ الابد ، ولكن هذا الصراع هو الذي يشعر الرجل برجولته وبقيمة بطولته ، ويهديه الى فهم الحياة والشعور بها من طريق الاصطدام بالمرأة التي تمثل له مختلف غرائز ونزعات واتجاهات الحياة ..

وليس من شك في ان الاديب الفنان الذي يحاول ان يكتب القصة لا يستطيع ان يغفل في قصصه تصوير هذا الصراع . اذ لا حياة للرجل بدون المرأة ولا حياة للمرأة بدون الرجل . والذي يهمل الاهتمام بالمرأة يهمل نصف الحياة .

وقد ظهر لابراهيم المصري في هذه الدراسات النسائية عدد من المؤلفات اهمها :

مدرسة الحب والزواج ١٩٥٢ ، دروس في الحب والزواج ١٩٥٤ ، الغيرة ١٩٥٦ ، المرأة في حياة العظماء ١٩٦١ ، الحب عند مشاهير النساء ١٩٦٢ ، الى جانب كتابيه المترجمين : تاريخ الحب لمارسيل تينير ١٩٣٧ ومختارات من الشعر الغرامي ١٩٣٨ .. ويضاف اليها أيضا كتابه : « قلوب الخالدين » ١٩٥٤ الذي يجمع بين القصة والدراسة والترجمة ، ويكشف عن قوة المرأة حين تلتقي بقوة العبقرية الممثلة في عدد من كبار الادباء والفنانين ..

وهذا الاهتمام بتحليل ما خفي من جوانب شخصية المرأة في علاقتها اليومية بالرجل ، والكشف عن شخصية الرجل الذي لا يتم الا باصطدامه قلبا وروحا وجسدا بشخصية المرأة ، وتصوير حياة الكثيرين من أعلام الفنون والآداب حين تقع تحت تاثير المرأة وحب المرأة ، هذا الاهتمام كان قليلا وخاطفا وغير متعمق في أدبنا العربي الحديث نظرا الى احتجاب المرأة الطويل الامد عن المشاركة العملية مع أخيها الرجل في مجتمعاتنا فأثارت هذه المؤلفات والكتابات اقبالا لدى الشباب على مطالعتها والانتفاع بها في حياتهم العاطفية والزوجية . وبخاصة في عصر عمت فيه الشرق العربي نهضة اجتماعية واقتصادية نرى آثارها اليوم في ائتلاف الجنسين في مختلف نواحي الحياة العامة.

الشاعر

ومما يلاحظ علي ابراهيم المصري ميله الشديد لقراءة الشعر العربي والعالمي وتذوقه .. والواقع أنه قصاص وشاعر ، وان كان ينثر الشعر ولا ينظمه .. وتسبح معظم قصصه في جو وجداني تقترن فيه الحقيقة بالشعر ، والروح الواقعية بالتصور الذهني المشبع ببديع الاخيلة . وهذا المزيج هو الذي تمتاز به قصصه . وبعضها يشبه سيمفونيات وجدانية تتجلى لا في التحاليل النفسية فقط بل في الاسلوب الشعري الموسيقي أيضا . ومما يدل على نزعته الشعرية أنه كتب كثيرا من الشعر المنثور وان كان لم ينشره في كتاب بعد ..

ومن رأيه ان يتجنب الشعراء عندنا نزعة الاسترسال في قصائدهم وان يحاولوا ضبط العاطفة وتركيزها في عدة أبيات على نمط « السونيت » اي المقطعات الشعرية الافرنجية . فتصبح العاطفة بارزة

الى اللقاء اميمتي

★ ★ ★

أماه ! حقك لا المدامع تنفع	شيئا ولا حكم المنية يردع
أودعت جسمك في الثرى واحسرتي	فكأنما قلبي هنالك .. مودع
لا ليس أمي من دفنت بلوعة	لكن حشاشتي التي تتقطع !
أتذكر الماضي فيأنس خاطري	وأعود من هول المصيبة أجزع
أتمثل الماضي وأنت بجانبي	يا حبذا أيامه لو ترجع ...
يا ليت لي الامس القريب بعائد	وأظل أنعم بالحنان وأرتع
يا لبوة بيد الممات فريسة	مالي يد أواه .. ماذا أصنع ؟
غير البكاء عليك كل هنيهة	تتوجعين كما أنا أتوجع
وأنا أموت على شفائك حسرة	وأكاد أسمع عنك ما لا أسمع
قالوا الدواء فقلت خدعة خادع	قالوا الطبيب فقلت ماذا ينفع ؟
والجسم نصف في التراب موسد	والنصف في درب الفناء مودع ...
نصف يعيش لصيق نصف مائت	والموت بينهما يطل ويرجع !..
ودعتني بكآبة ومرارة	فكأنني أمل الحياة أودع ..
تتبسمين وثم تخفين الاسى	عني وعينك مثل عيني تدمع ...
صلة الامومة والبنوة بيننا	لكنما حبل الرجاء مقطع !
أزف الرحيل ويا فجيعة ما أرى	وعيوننا من بعضنا تتودع
أبكي اليد السمحاء يطويها الردى	فكأنما يطوي العطاء ويمنع !
تلك التي بالمكرمات خليقة	وبها الفضيلة مثل شمس تسطع
يا بنت خير أب وأم في الورى	وكريمة الجدين أصلك أرفع
يا وردة غزت القلوب بعطرها	وغدا الضريح بطيبها يتضوع !..
فالى اللقاء .. أميمتي وعزيزتي	لا بد ما يوما بقربك أهجع
من قبل موتك لم يجل في خاطري	ان الجواهر في الثرى تستودع !

زحلة ـ لبنان

رياض معلوف

وحية وبالغة التأثير في النفس ..

ومن رأيه أيضا ان الشعر يجب ان يذهب الى ما وراء المنطق وما وراء العقل الواعي ، وان يعب ما استطاع في أغوار العقل الباطن وصوره وأحلامه ، بحيث يعبر عن التفاعلات النفسية وما تولده في المخيلة من احلام ورؤى . وهذا قد يضطر الشاعر العصري الى تحطيم قوالب الشعر القديمة وابداع قوالب مستحدثة . فيجب ألا نضيق نحن بهذه القوالب المبتكرة وألا نظل عبيدا للقوالب القديمة، فالعبرة في الجوهر الانساني العاطفي التصوري العميق الذي يبدعه الشاعر ويستطيع ان يلمسنا عواطف وصورا ورؤى للحياة صادقة وقوية كانت غريبة عنا وكنا لا نحس بها ولا نفطن اليها ..

أما الالهام فيجب ان ينبع من نفس الشاعر وبيئته بحيث يجيء شعره معبرا عن ذاته ومحيطه ويكون في الوقت نفسه شعرا انسانيا يخاطب كل فرد في كل شعب وفي كل زمن ..

وبعد ـ فلعل هذه المقدمة تحفز ناقدا اديبا على دراسة حياة ابراهيم المصري وأدبه في تفصيل وتحليل يستوعبه كتاب واف مكمل.

رمل الاسكندرية

نقولا يوسف

وشائج الفلسفة والفن

بقلم الدكتور صلاح الدين المحايري

* * *

لا بد للباحث في مصادر الفن الاولى ان يعالج الفوارق بين : (١) الجمال (٢) والخير (٣) والحقيقة وهي القيم الفلسفية السامية التي تحفز البشرية الى الوثوب من هوة الحيوانية الساحقة الى ذروة الانسانية العليا وتحقيق الاحلام المجنحة التي كانت وما زالت تجول في رؤوس المصلحين والطوبويين على سطح هذا الكوكب ، ويستطيع بهذه المقارنة ان يرسم في مخيلته حدودا سوية للقيم الثلاث . فاذا كانت الحقيقة ينبوعا صافيا يرده الفيلسوف والعالم ليرويا ظمأهما للمعرفة الخالصة ، وكان الخير سبيلا قويما لارضاء الحافز الاجتماعي او دافع القطيع – كما يقول علماء الاجتماع – وهو حافز جوهري رسيس في نفس رجل الفضيلة ، فالجمال باعث (بنائي) تأملي مجرد من شوائب الحيوانية منطلق من قيود الضرورة . ويقول الفيلسوف الانكليزي المعاصر صموئيل الكسندر في كتابه الفن والفريزة «ان الحافز الجمالي وما يقترن به من شعور نوعي خاص يتولدان من الميل (الانشائي) في الحيوان بل هما تلك الفريزة (البنائية) البدائية تتجاوز طور الحيوانية الى نطاق الانسانية ثم تغدو تأملا صافيا لا تلابسه المنافع والقيود » .

وجدير بمن يبحث في نشوء القيم وتطورها ان يدرك ما للعقل وللوسط الذي يكتنفه من خطورة في اصطناع تلك القيم وتحديد فوارقها والوانها ولا ريب ان الفن الجميل الذي يمزج فيه الفنان شخصيته بالقوالب المادية التي يسكب فيها فنه يقف موقفا وسيطا بين الخير والحق او بين الفضيلة والعلم . (١) « فالعلم » ظاهري موضوعي تسيطر فيه ظواهر الطبيعة الاولية فتخضع العقل لقوانينها المحتومة . (٢) و «الفضيلة» باطنية ارادية تحاول ان تفرض نفوذها في الكون الخارجي وتنشد في رحبه دنيا جديدة رفيعة من صنع يدها المحسنة (٣) اما «الفن» فقوامه ثنائية متوازنة بين الذات والموضوع لا يطغي فيها احدهما على الاخر ، وهو في هذه الثنائية باطني ذاتي اذ تتآلف عناصره المستمدة من الانطباعات الكونية والنفسية في صميم العقل الباطن ، وهو ظاهري موضوعي حين ترتسم معانيه ومشاعره واهتزازاته في الفاظ وقوالب وخطوط والوان وانغام متسقة ماثلة للحس والعيان . غير ان هذه الفوارق السطحية لا تصل الى الاغوار وينتظم القيم الثلاث جميعها تماثل متغلغل في كيانها لان نشدان الحقيقة ليس نزوعا فكريا وادراكا عقليا للواقع فحسب ، بل هو فهم ذاتي لعالم الوعي الخفي او «اللاشعور» ايضا ، فهو ، لذلك يضم «الخير» و «الجمال» في تضاعيفه كما يضم عناصر واجزاء ومظاهر مباينة لهما ، وهذا المصدر المشترك للقيم السامية هو مفتاح الصلات بين الفلسفة والجمال ، بل هو المنهل الصافي الذي تصدر عنه الحياة والفن معا ، واذا كانت الحياة حب الاشياء والطموح الى تحقيق غايات ملموسة معينة فالفن – كما يقول علماء الجمال – حب هذه الحياة ذاتها بما تضمه جوانحها من طمحات وميول شتى فهو ليس في جوهره موهبة مستقلة بل شكلا منصهرا يتجرد من ادران الغايات المادية وتلتقي فيه اغلال الضرورة وافراح الحرية في تآلف جميل .

ويرى النقادة الجمالي «دالاس» ان المصادر التي يستمد منها الفن مواد فنه الاولية ثلاثة : (١) التآلف المولد او تآلف الحركة Dynamic Harmony وهو امتزاج متوازن للمشاعر المتضادة في ثنايا الاعصاب ، فليس يطيب المزيج (الدرامي) للعواطف المتنافرة من حزن وفرح وبغض وحب الخ على التعبير في كلم متناسق جميل الا في حدود التآلف المذكور . (٢) التآلف الثابت Static Harmony او (الجمال الصافي) وهو تأمل للاشياء الجميلة في ذاتها كالاشكال الهندسية المتناسقة والالوان الصافية والنظريات الرياضية المضبوطة ، وجماع هذه الاشكال والصفات يولد وجودها الفرح ولا يبعث اختفاؤها على الالم ، خلافا للتآلف الاول الذي يستقر اثره في النفس بعد اختفاء مسبباته الحسية (٣) والمصدر الثالث لا يمت بصلة القربى الى العقل الواعي – او (تآلف الارادة) كما يدعوه «دالاس» الذي يشتمل على المصدرين السالفين بل ينبع من العقل الباطن ويدعوه «دالاس» بالسحر الخفي ، وهذا المصدر – في رأي صاحبنا – لب لباب الفن فقد يخلو الاثر الفني من احد العنصرين الاولين ولكنه يظل اثرا عظيما ما دام السحر الخفي شائعا فيه .

وعندي ان في هذا القول الذي يسهب فيه «دالاس» جانبا من الحق ولكنه لا يخلو من المغالاة في بعض نواحيه لان الفن الذي يستمد مصادره من العقل الباطن فقط دون ان يعبأ بمصدري التآلف في العقل الواعي – على حد التقسيم المذكور – هو فن أبتر رتيب تتكرر صوره ويتلاشى فيه الابداع والا فما الفرق بين الفنان الاصيل اليقظ والحالم الفارق في سباته الذي تتعطل فيه قوى الوعي ، او النحلة العجماء التي ما برحت تبني خلاياها منذ وجودها الاول على وتيرة واحدة خالية من الابتكار ؟

لقد قلنا فيما سبق ان رائد الحقيقة ينشد ادراكا للواقع وفهما لعالم الوعي كما يطمح الى استكناه غوامض (اللاشعور) وأسراره الخفية ، وان هذا المصدر المشترك للقيم السامية هو مفتاح الصلات بين الفلسفة والفن فما

هي مواضع الاشتراك والافتراق والتبادل بين الفرعين ؟

يقترن مدلول (الفنون الجميلة) في الذهن بتلك الاثار الانسانية الخالدة من قصائد ، ولوحات وتماثيل ، ومبان ، والحان موسيقية ..الخ..وهي قوالب وصيغ يصب فيها رجال الفن ذوب قلوبهم وكوامن نفوسهم وما نقش في افئدتهم من انطباعات الكون الرحيب فتغدو أوثانا قسيمة ينعم بفتونها عبدة الجمال وينشدون في ظلها ومضات عابرة من التأمل تنطلق فيها الافراح من اوزانها لا تلابسها قيود الضرورة واغلال المنفعة .

قد يعد البناء ليصبح مثوى يفيء اليه المرء في راحته ويصب الاناء ليكون مثابة تقر فيها الزهور الندية سويعات قبل ان تتناثر اوراقها وتذبل كؤوسها ، ولكنهما اذ تتآلف خطوطهما وتزهو نقوشهما وتنعكس فيهما رؤى الفنان المعمار واحلام الصانع الماهر يتجردان من شوائب النفع وينعتقان من وثاق (الارادة) العمياء التي تخيلها (شوبنهور) دافعا خفيا ازليا يقرر مصائر ابناء الفناء ويسدد خطاهم بأقدار محتومة لا يستطيعون انفكاكا منها لاستنشاق نسمات الحرية البليلة الا في غمرة من رؤى الفن تعنو فيها (الارادة) للتأمل البهيج . واكثر ما يكون المرء انطلاقا من اسار الارادة في درر الشعر وفواتن الرسم والنحت والمثالة وروائع اللحن والغناء ، اذ هي مفترقة عن العمائر الشامخة والاواني المنقوشة وما شبهها في قيمها الجمالية الصافية وفي خلوها من أوضار الفوائد المادية .

ومما يدهش له المرء ان يرى جميع الباحثين في القضايا الفلسفية العامة يعمدون الى الاستقصاء في معالجة الروابط بين الفلسفة والعلوم وان يمعن جلهم في تفهم الصلات بين الفلسفة والدين وانهم قلما يبحثون في ماهية العلاقة بين الفنون الجميلة والفلسفة لا يستثنى من ذلك سوى (الشعر) . لا جرم ان هنالك اسبابا تجعل الشعر متفوقا على الفنون الاخرى في هذا الصدد وسنعرض لهذه العلاقة وطبيعتها فيما بعد ، غير ان الفن في افقه الوسيع وفي شتى صوره والوانه يؤلف من الوشائج التي تربطه بالفلسفة قضية جوهرية لا تقل خطورة عن القضايا الاخرى التي عالجناها .

لا ريب ان كثيرا من الاثار الفنية خالية في اغوارها من المعاني الفلسفية وهي ، لذلك ، لا صلة لها فيما تهدف اليه من تفهم الروابط بين الفن والفلسفة ، فثمة لوحات تؤلف في جوهرها انماطا من الخطوط والالوان لا يبين القصد فيها ، وقصائد وقطع موسيقية تنتظمها جميعا سلسلة ايقاعية متعاقبة من الجروس والاوزان والانغام والاصوات تكاد ان لا تفصح عن غاية معينة ، ومع هذا ففي ميدان الفن متسع رحيب تبرز فيه المعاني الفلسفية الخطيرة في ابهى حللها (كما هو الحال ، مثلا ، في نماذج الشعر التأملي والخلقي) . ومن يمعن مليا في هذه الاثار يجدها مخالفة للعلم ، مماثلة للفلسفة في اهتمامها بالمعاني والمقاصد والقيم وفي نظرتها الكلية للاشياء وفي محاولتها ان تكتنه بواطن هذه الاشياء دون ظواهرها . واذا كان الكثير من ثمار الفن الجميل سطوحا ومظاهر لا أعماق لها ، او كانت نماذج حسية وانعكاسات ضوئية وانطباعات سمعية بحتة ، فالاثار الخالدة تمعن قصيا في الاغوار وتنفذ الى المعاني المستسرة في الباطن . زد على ذلك ان الجمال في الصورة الحسية ، او الاثر الذي لا يتعدى تخطيط المظاهر السطحية ليس وسيلة او (ظاهرة) نسترشد بها لمعرفة العناصر الاولية في اللوحة او القصيدة فحسب ـ كاللون الذي تطلى به اللوحة والوزن والقافية اللذين تنظم بهما القصيدة ، بل هو ، ايضا (قيمة) يكتشفها المتأمل البصير في الاثر المائل لناظريه . ومن الحقائق المشاهدة المأثورة في فني التصوير والنحت ان التمثال واللوحة في تمثيلهما للاشياء والكائنات الطبيعية يتحليان بصفتين مختلفتين : (١) فقد يعرضان لنا حوادث واوضاعا معينة تغنينا عن الوصف اللفظي ، وآية ذلك ما نراه في الكتب والاسفار الحديثة المختلفة من صور يعتاض بها المؤلفون عن التبسط في سرد الحوادث والافاضة في وصف تفاصيلها . (٢) وقد يمثلان لنا وضعا لا يؤبه له وحادثا غير خطير في ذاته ولكنهما بالرغم من ذلك ، يهزان كوامن نفوسنا ويؤثران في شعورنا بما يشيع في اجزائهما من الروابط الشكلية المنسجمة كما هو الامر في البناء والموسيقى .

فالانطباعات في الحالة الاولى تثير في صفحة مخيلتنا مشاعر وتجاريب نعانيها في الحياة الواقعية ، فمشاهد الحب ومناظر القتال الدامية تماثل ذكريات عاطفية منقوشة في عقلنا الباطن لا تتجاوز حوادثها ومحتوياتها الحدود التي تتحيز فيها الخطوط والظلال والالوان الماثلة امامنا . اما الموسيقى والتصوير في شكليهما الصافي فلا يثيران في النفس تجربة معينة وشعورا محدودا بالرغم من الروابط الجاذبة التي تصلهما بعواطف السامع او المشاهد ، وهما يتميزان بما يطبعانه في النفس من احساسات مبهمة ، واغلب الظن انهما يستمدان عناصرهما الاولية من قرارة النفس وطوايا العقل الباطن ، وثمة اثار فنية تجمع بين الحالتين فهي تمثل اوضاعا معينة وحوادث زمنية محدودة تتخللها جميعا بدوات غائمة واخيلة مبهمة تنبع من دخيلة الفنان وهي دخيلة وعرة المفاوز بعيدة المنال يحجبها عن النظر قناع جسدي صفيق تتسرب من خلاله اشعاعات باهتة يستشفها النظر الجديد والبصيرة النافذة وتبقى دونها ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض . وللقارىء ان يمعن في هذه الاثار الاصيلة جميعا وان يجيل ناظريه في تفاصيلها وهو لا بد عاثر وراء هذه الظلال والالوان والمعالم على قيم علوية تشيع في نفوس رجال الفن الافذاذ وتعزف بهم عن رتابة الحيوانية الدميمة ومسالك الالية الجامدة .

واذا كانت القيم الجمالية جوهر الفن ومصدر الاصالة فيه فهي في طليعة القيم التي تتناولها الفلسفة وتحاول النفاذ الى كنهها . ولذا كانت الروابط التي تصل الفلسفة بالفن على جانب عظيم من خطورة الشأن . وحسب الذي ينشد تفهما لهذه الروابط الوثيقة وتحقيقا للمثل الرفيعة التي تنطوي عليها جوانح عباقرة الفن ان يصرف سويعات يستطلع فيها اسرار بعض اللوحات الرائعة ويستجلي غوامض المعزوفات (السمفونيات) الخالدة .

ترى ما هو السر الذي يتغلغل في ظلال وطيوف (العشاء الاخير) وهي اللوحة الخالدة التي اراق فيها «ليوناردو دافنشي» الجبار ذوب عبقريته الفنية وسجل فيها انطباعات بصيرته ؟ بل ما هي المعاني والقيم والخلجات التي تترقرق وتنعكس في وجوه الحواريين وقد انتصب المسيح بينهم يشعرهم بدنو الساعة الرهيبة لتطهير البشر مما تغلغل في نفوسهم من آثام وعلق فيها من أدران ، وينبؤهم بالخيانة الغادرة تخطر بينهم في اهاب حواري ومسوح قديس ؟ رؤوس فخمة تموج وتضطرب بالنبأ الصاعق ووجوه منقبضة ونظرات ذاهلة مشدوهة يمتزج فيها الحب والهلع والحزن ، وتلتمس في جوارها موضع الصل الارقم وتكاد لولا الذهول ان تتبينه في سحنة شيطانية ماكرة وعضلات متقلصة متشنجة في العنق والوجه وعيون غائرة تطل من وقبيهما نفس غادرة مجرمة تنطوي على الاظفار والمخالب الدامية ، ويخيل لي ان (ليوناردو) قد استقطر الدناءة الانسانية في صفحة هذا الوجه الذي يمثل (يهوذا الاسخريوطي) وحصره في نطاق صغير ليسهل انتقاشه في الواعية الخفية .

وفي سقف كنيسة (السكستين) تاريخ حافل واقاصيص عجيبة تزدحم بالحوادث وتعج بالخلائق قوامها في الظاهر وجوه واجساد وهياكل وسلسلة من الخلائق الفها الناس وطالعوا أخبارها في الكتب المقدسة والنصوص المدونة ولكنها جميعا ، من فصل النور من الظلمة الى حكايات الهبوط والطوفان والشهادة والخلاص والدينونة ، ادوات وذرائع ابدعتها مخيلة (ميكلانجلو) الخصيبة لتضم في أطرها صور الخزى وتنظم في معالمها بوادر الظلم ونوازع الانعتاق التي يحفل بها عصره وليغزل منها — ساحرنا العظيم — خيوط اوهامه وآلامه وينسج فلسفته ومثله واحلامه .

واروع من هاتين القصتين ملحمة نظمها (بتهوفن) في انغام متساوقة وامواج صوتية متسقة ترتفع مدوية مجلجلة حتى تكاد تنفجر وينفرط عقدها ثم تهبط مسرعة متخافتة الى ان تعود ركزا تتلقفها النفوس دون الاسماع ، وهي حكاية تلك العاصفة الباطنية المحتدمة في صميم ذلك العبقري المارد ، وهي سيرة الآلام البشرية مختزلة مكثفة في قلب ذلك الموسيقي العظيم ، منعكسة من صفحة حياته المريرة . ملحمة ويا لها من ملحمة ! يتجلى فيها الصراع المخيف بين الاقدار المحتومة وبين النفس الانسانية المتشوقة الى الانطلاق في الآماد الوسيعة ، الظامئة الى احتساء كؤوس مترعة من افراح الحرية والسعادة .

تصور الليل ساجيا وفي سجفه نذر خفية والصبح مسفرا وفي اردانه سحب قواتم ثم تخيل عقيبهما الاعاصير الهوج السافية تغزو مفاوز الارض ، والرعود القواصف تصم الاسماع ، وفي ملاوات عابرة تنطلق فيها الفكرة الموسيقية من ثنايا الغياهب الكثيفة ، يطل الامل مترنحا شاحبا ويشرف الفرح مريرا ملبدا وتضطرم فيها العواطف ملتاثة ممزوجة بالسم الناقع ، فاذا ما اتقدت في الافق حمرة الشفق وارتسمت في جوانبه خيوط الفسق ، الفيت العاصفة هامدة والغياهب اشلاء ممزقة وما أعجب الليل الوليد ينحسر قبل اكتماله عن نهار صاف مشرق تطرب اغاريده وتسكر نسائمه وهمساته وقد وشت حواشيه يد انسانية صناع وفرضت افراحه ارادة عبقرية جبارة . هذه هي السمفونيا التاسعة التي نسجها بيتهوفن من خيوط عقله وقلبه فكانت حدثا فريدا وأثرا باقيا خالدا يتكرر كظاهرات الطبيعة واحداثها الازلية .

اي ظفر تاريخي جسدي يضارع في جلاله هذا الظفر الروحي ويصل في سمته الى الذروة السامقة التي بلغها موسيقينا العظيم ؟ وهو — كما وصفه (رومان رولان) الاديب الافرنسي الكبير — « شقي ، فقير ، مريض ، منعزل يتجسد فيه الالم وتنكر الدنيا عليه الامل ، فيصوغ من شقائه فرحا يغمر به العالم ، وما اجمل القول الذي كان يردد مزهوا وقد استأنف به حياته الجديدة فأصبح شعارا للنفوس التي تستشعر البطولة في صميمها : انشد الفرح في غمرة الالم » .

وقس على ذلك امثلة كثيرة يتيه فيها السمع والنظر ويشرد اللب والبصر .

فهل يجوز ، بعد هذا ، ان نرى في آثار الفن الوانا وخطوطا وانغاما مشتتة شاردة ، وان ننكر في آثار الفن الرفيعة ما تتضمنه من مقاصد وقيم ومعاني شاملة ، هي نفسها دعائم يرتكز اليها صرح الفلسفة الباذخ ؟.

واحسب ان هذه الحقيقة كانت تدور في خلد (ارسطو) حينما وجد في «الشعر فلسفة لا تضمها صفحات التاريخ » . والشعر بمفهومه (الارسططلي) يدل على الفنون الجميلة ، كما يرمز «التاريخ» في المفهوم نفسه الى العلوم الوصفية ، وموجز ما ينطوي عليه راى فيلسوفنا ان الفن ادنى وشائج واواصر الى الفلسفة من العلم .

ولعمري ان الصلة التي تخيلتها الاساطير الاغريقية بين ربات الفن في قمم الاولمب وبين افذاذ الفلسفة والمبدعين على وجه هذه البسيطة ، هي صلة الدماغ بالوتين النابض دون انفصامها ببرودة الموت وخمود جذوة المعرفة .

دمشق — صلاح الدين المحايري

الانسانية في أدب مي

بقلم وداد سكاكيني

* * *

لا بد لمن يبحث في أدب « مي زيادة » ويستجلي صوره وآثاره ، من أن يلقي نظرات عليها طويلة ليستطيع أن يتبين فنها ووجهتها وطابع اسلوبها وثقافتها ، فاذا ألقينا نظرة عامة على أدب مي في مختلف اشكاله ومراميه ، كمن يحيط بجمع من الاشياء في لمحة واحدة ، فان أول ما يتجلى لنا من هذا الادب هو الانسانية ، ونحن اذا أحصينا الادباء الانسانيين في تاريخ الاقلام والافكار منذ قال سقراط وكتب افلاطون حتى سيرة الانسانية المعذبة لألبير كامو الذي مات حائرا مدهورا ، نجد الطابع واحدا عند هؤلاء ، فقد مارسوا اكتناه الروح الانسانية في الحياة والمجتمع ، وفي مظاهر الفكر والفن ، وكانت الدروب تقضي كلها الى نقطة واحدة هي الانسان وحده ، وهو الذي كان مصير كل شيء في الوجود اليه ، ومنطلق كل شيء من عنده ، فمؤلفات مي واحدا بعد واحد من « أزاهير حلم » الذي صورت فيه بالفرنسية أطوار حياتها الاولى كانت تدخل فيه الى نفسها واحساسها لتعبر عن الانسان المتسائل عن أسرار الكون والطبيعة الى « سوانح فتاة » و « ظلمات وأشعة » و « بين الجزر والمد » و « المساواة » وغير ذلك من كتبها ومحاضراتها ، نرى ميا فيها تعالج المشكلات الانسانية قبل أن تعالج غيرها ، لكن على طريقتها ومن وجهة رأيها .

وكان تمحيص مي لهذه الامور يبلغ الاعماق والطوايا ، ولا يقنع بالسطوح حتى أكاد اصف آثار مي بأنها كانت المرآة الصافية لادبها وحياتها قبل محنتها .

على ان هذا الادب الذي عكفت فيه مي على ذاتها قرأتها في فصول من النثر شائقة التعبير فنية الطراز أو في حديث يرويه مرتاد مجلسها او رسالة كتبتها على سجيتها لم يكن الا فيضا من أصالة وابداع ، فقد أوتيت هذه الاديبة موهبة خصبة في الاداء والخيال وفي التأمل والتفكير ، وكانت مثل طائر غرد حط على غصن في الدوح ، فأنس بالظل والنسيم وطاب له الشدو والتغريد ، وما كان دوحها الاول الا في منبتها لبنان ثم على ضفاف النيل حيث تألق أدبها في آفاقه وتفتح قلبها على حب أهله ومجاليه .

ومي زيادة حين طالعت آثار من تقدموها من أعلام الفكر والبيان كالشدياق واسحاق ، وجبران والريحاني ، وولي الدين واسماعيل صبري ولطفي السيد ، تأثرت بثورتهم على التخلف والهوان ، وانطلقت في تعبيرها وثقافتها ، ولم يكن احد من هؤلاء الا انسانيا في تفكيره ورسالته ، وقد استوحت مي روح الشرق في عاداتها دون تعنت او تكلف ، ولما درجت في طريق الادب كان بستان خواطرها آذن زهره بعد الربيع بالثمر ، فطلعت على الناس كاتبة وخطيبة ، وما كانوا يسمعون مثل كلامها من عربية في أيامها ، ثم قرؤوها بمقالاتها ودراساتها التي جمعت في كتب ومنشورات فتبينوا فيها أدب الانثى التي سبقت الرجال قبل الاوان ، وكان ناضحا بانسانيتها وطبعها .

لم يكن بالهين المألوف ظهور هذه الاديبة ابان الصراع بين القديم والحديث في نهضتنا المعاصرة ، وفي حدة النقد لدعوة المفكرين والمصلحين الى تحرير المرأة العربية بالعدل والتعليم ، لكن ميا وقد أوتيت ما أوتي قادة الفكر والادب من مواهب ومزايا ، استطاعت ان تفرض شخصيتها بينهم وفي ارقى المجتمعات مشاركة بلباقة وفطنة في نشر الوعي والتطور والحرص على سلامة العربية ومقومات الامة الانسانية بالكتابة والخطابة والقدوة الحسنة وتمثيل المرأة الموهوبة بأحسن سيرة وابلغ حجة وبرهان .

اما ابداع مي فقد تجلى في أدبها العربي الاصيل الذي تحرر من التزويق والزخرف وكانا زينة التعبير في زمانها عند المحافظين والمقلدين ، على أن ميا التي طاوعها القلم والاداء كان اسلوبها نسيج وحده ، فقد أبدعته من عند نفسها وسليقتها ، ما قلدت فيه أديبا او خطيبا فكان تعبيرها عن شعورها وتفكيرها يشف عن ذوقها وفنها ويدل محتواه على تجاوبها مع الحياة والمجتمع الذي عاشت فيه .

وقد مثلت مي في أدبها انسانية المرأة وحنانها وأشواقها ، ولما كتبت القصة والرسالة وألفت الدراسة الادبية وألقت المحاضرات عدت من رواد الفكر والادب في نهضتنا المعاصرة ، اذ تلاقت مع هؤلاء في النزعة الانسانية التي ظهرت في مؤلفاتهم واتجاههم ، وكان لها أثر عميق في حياة الادب والادباء على ضفاف النيل ، فقد جعلت من دارها ندوة لهم ، فأعادت الى تاريخ العرب سيرة المجالس الفكرية التي ظهرت قديما في أزهى عصور الحجاز وبغداد والاندلس ، وقد استطاعت مي ان تجعل من لهجتها العذبة وعربيتها الرشيقة لغة حديث وتحاور لا تنطع فيها ولا تقعر ، فدلت على نبوغ الموهوبة اذا اتيح لها التشجيع والتقدير .

وكان الطموح يحفز ميا للتفوق والظهور ، فتزودت خير زاد من الثقافتين العربية والغربية ، واتقنت تسعا من اللغات الاجنبية ، وقد شاقها أن تصل الى القمة التي بلغها نفر من نوابغ الادباء العرب في هبات التطور والتجديد دون ان تعبأ بحدة الحنين الى ما يسعد الفتاة ويحقق فطرتها ويؤنس وحدتها اذا امتحنها الزمان ، وتخلى عنها المتهافتون عليها في زهرة عمرها ، لكن نبوغها المبكر شغلها

اغنية الى صغيري

سيظـل الغنـاء عذبـا نديـا ... وتفيض الحياة خصبا وريـا
سيظـل الفـؤاد يعمـر نـورا ... ويخبـو الشقـاء فـي محجريـا
ستفيض الدموع في حدق العيـن ... طالما انت باسم يا بنيـا
ابتسم ، يابني ، أنـت صغيـر ... لـم تـزل ساذج الضمير نقيـا
انـت مـا زلـت نفحـة من أريج ... ونشيـدا مـن السمـاء عليـا
نفحـة مـن ضمائر الغيب ، كونا ... لـم يزل غامض الرؤى ، مطويـا
وصـدى في متاهة الروح ، يغفو ... صامت اللحن ، خاشعا ، أبديـا
لا تفـق مـن طفولة اليوم ، اني ... أفتديـك الشبـاب . ظـل نديـا
أنا أخشى عليك من شظف الدهر ... فتحيـا علـى الوجود ، شقيـا
ظـل طفلا تهيـم في ريق العمر ... ولا تفـد ، فـي الحياة ، عتيـا
ظـل كالزهرة الضحوك .. طهورا ... لا تدنـس وجـدانـك القدسيـا
انمـا العمـر ، يا بنـي ، اكتئاب ... وخريـف يشـظ .. يصخب غيا
والوجـود الكبيـر .. درب طويل ... تائـه الخطـو ، لا يفيـق مليـا

ايه يا (رائدي) الصغيـر تبسم ... ان في ثغـرك الجميل لريا ...
غيهـب في جبينـك الحلو يغفو ... فيلسوف الآمال ، بكرا ، شهيـا
ان تبسمـت فالصباح جميـل ... وكئيـب اذا بـدوت أسيـا
انـت مـن روحي الكئيب ابتسام ... نسجتـك الاحلام روحـا سويـا
فابتسـم ، يا بني، يرجع فؤادي ... كالصباح الجميـل .. أبعث حيـا
ابتسـم ، يا بنـي ، ينطفىء الليل ... ليصحـو النهـار فـي عينيـا
ويعـود الربيـع للامـل الـذاوي ... وتزهـو النجـوم بيـن يديـا

عمـان ... راضي صدوق

برسالة لا تستطيع ان تقوم بها كل اديبة ، فانصرفت الى أدبها وقلمها ، معبرة في بعض آثارها وخواطرها عن قلقها حينا وشوقها الى الامومة الكامنة في جنسها ، وربما انساب تعبيرها في هواجسها دون ان تدري ...

والفت كتابا في «المساواة» بحثت فيه عن مياسم الطبقات الاجتماعية ، وكيف نشأت واتسمت بمظاهرها ودرست محاولات الفلاسفة والمفكرين لتكوين مجتمعات واعية فاضلة ، وقد أمعنت مي النظر والفكر في مذهب «ماركس» والمشكلات فيه وتناولتها بالنقد والملاحظة ، وكانت قضايا المحرومين والمظلومين تشغل بالها وتشير اليها بمقالاتها ولكن دون ان تجعلها موضوعا قائما على دراسة الاسباب ، فالعطف الانساني كان رائدها في نزعة الرحمة عندها نحو المظلومين والمحرومين .

وفي أدب الرسائل فاض قلب مي بالانسانية المثلى ، فكان بينها وبين الذين توددوا اليها وتحاوروا معها رسالات نضحت بالذوق واللباقة في تعبيرها والاهتمام بشؤون الفكر والحياة والمجتمع ، ولعل اروعها ما دار بينها وبين الرجل الذي فاز بقلبها ، وهو اديب مثلها مضى الى المهجر « بأجنحته المتكسرة » وبواكير الهامه ، فكان بينهما على بعد الديار والامصار أحلام واشواق ، ثم حالت عوائق في اللقاء حتى دهمت العلة هذا الحبيب البعيد وغيبه الموت قبل ان تـراه .

ان مولد الانسان في نظر بعض الشعراء والحكماء كأبي العلاء يشبه موته ، وربما كان المهد كاللحد ، وهكذا نجد ميا التي كانت منحة للانسانية وحجة للمرأة العربية في نهضتها الحديثة ، قد سطعت كنجم في الدجى وغابت عند الصباح .

ومثل النجم الذي يبقى ساطعا في النهار ولا تراه الاعين ، بقيت مي زيادة ساطعة في أدبها وآثارها التي تمثلها وتردها بانسانيتها التي عاشت فيها على الارض ، وادت بمنازعها وقلمها رسالة الادب من وجهتها التي آثرتها ووافقت طبعها ومزاجها .

دمشـق ... وداد سكاكيني

بارقة أمل

بقلم حازم مراد

كانوا ثلاثة .. امرأة ورجلين ، يتدافعون بالمناكب ليصل آخرهم قبل اولهم ، والليل في منتصفه ،والظلام الشديد يلف كل الدنيا ويطويها ، والسماء مكتظة بالغيوم وهي تبشر بهطول المطر في كل لحظة مقبلة ..

كانت المرأة في مقدمة الموكب ،ومن خلفها ، على بعد خطوات قصيرة ولدها الذي يناهز الخامسة عشرة من عمره ، وفي المؤخرة كان الزوج يبذل مجهودا كبيرا ليلحق بهما .. وكان يحاول ، ويبذل من قوته واعصابه الكثير ليتصدر مقدمة الركب .. لكن، اشياء كثيرة كانت تحول دون تمكنه، في مقدمتها تقدمه في السن وتصلب الشرايين في الجسد ..

و .. ابرقت السماء .. وارعدت مذعورة ..

وتصبب من جبين السماء العالي حبات صغيرة من ماء غيمة رعناء لم تقو على البقاء اكثر في مكانها ، وارتعش الكون بعد لحظات قليلة .. واقبلت من ابعد ابعاد الدنيا المزيد من السحب .. اقبلت من كل اطراف الدنيا لتصب لعناتها على هذا المكان من العالم .. وانهالت الامطار ..

تباطأت المرأة ، واخفضت من ركضها قليلا ، واشرأب عنقها نحو السماء تبحث فيها عن القليل من الرحمة .. ثم التفتت الى الوراء نصف التفاتة لتبحث عن الرجلين .. ورأت ولدها على بعد خطوة منها .

– اين والدك ..

نفض الابن من ثيابه حبات المطر ، والتفت الى الوراء يبحث بعينيه القلقتين عن والده ، وقال :

– سيأتي ، فقد تركته ورائي .. لكن ، مالك تلهثين يا أماه ..

قالت بلا مبالاة وفوق وجهها تنام خيبة الدنيا كلها :

– لا شيء ..

– لم يبق الا القليل ونصل ..

– كم بقي ..

– مسافة عشر دقائق ونحن نركض ..

واحسا معا على حركة خافتة تنبعث بتثاقل من ورائهما ، التفتت الام بسرعة الى الوراء شبه مذعورة ، ورأت زوجها يزحف ببطء وارتخاء نحوهما وصدره يلهث من شدة التعب .. نظرت اليه نظرة خرساء باهتة لا معنى لها ، ورفع هو رأسه اليها .. تأملها لحظة سريعة ، وقال وهو يبتلع انفاسه بصعوبة :

– لماذا توقفتما .. لماذا ..

رد الابن وهو يركل الارض بقدمه:

– كنا ننتظرك ..

وقالت الام وهي تبتسم لزوجها بضيق لتشد من عزيمته على المضي في الدرب الطويل بلا يأس :

– الا تجلس قليلا لتريح نفسك..

ثم اردفت وهي تتأمله بحنان واحترام معا :

– اجلس ، فما زال هناك بعض الوقت على بزوغ الفجر.. اجلس..

– كلا ، هيا بنا نواصل الطريق ، وتذكر ان الحياة دائما للذي ينتهز الفرص .. واردف وهو يتطلع في سماء عينيها المتعبتين دائما :

– اننا بحاجة الى كل دقيقة لنصل الى هناك .. ان الحظ يحسب دائما بالثواني .. في لحظة واحدة قد تجدين ان كل شيء هو لك وحدك ، ثم .. في اللحظة المقبلة قد تفتحين عينك فلا تجدين سوى السراب يملأ الدنيا .. لذلك ، يجب ان نكون هناك مبكرين لنسبق الكل ..

قال الابن وهو يتأهب للركض :

– ان والدي معه الحق يا أماه.. فلنركض ..

الام بملل ونظراتها تتيه في كل صوب من السماء :

– يا لها من ليلة ..

الابن وهو ينقل نظراته بقلق الى المكان الذي تجول فيه نظرات أمه :

–ليلة متعبة ..واني اكره المطر ..

بحدة وغضب ، لكن ما زال في الصوت نفحة من حنان ، قال الاب :

– كفاكما تشاؤما .. وكونا متفائلين ، وليكن رائدكما .. العمل دائما من اجل ان نعيش بأمان فوق هذه الارض ..

الام وهي سارحة في السماء :

– اووه ..لكم بت اكره هذه اللقمة ، واكره الدنيا كلها .. في كل مرة اسأل نفسي ، لماذا لم اخلق لاعيش كما تعيش غيري من النساء .. لماذا .. لماذا خلقت لاشقى في هذه الدنيا .. وكم سيطول هذا الشقاء يا الهي..

– انت تفكرين اكثر مما يجب ، وهذا خطأ يا ايتها المرأة ، ودائما تبتعدين عن الواقع الذي انت فيه ، لذلك فمكتوب عليك الشقاء دائما..

– لكن لماذا .. لماذا أشقى دائما..

– باحلامك السرابية هذه لن تزيدي الامر الا تعقيدا، لذلك انصحك بالعودة الى الواقع الذي خرجت عليه وتتركي هذه الاحلام لغيرك من نساء الارض ..

– احلامي السرابية ..

– احلامك هذه ، لذيذة ، مريحة، وناعسة .. ولكن الحقيقة التي نحن فيها تعارضها بشدة ..

– هل تدري كم تأخذ مني هذه الاحلام .. هل تدري ..

– كل وقتك ..

– بل كل عمري..ولشد ما اتمنى لو اعيش كما تعيش غيري من النساء، براحة ، وهدوء ، وطمأنينة ..اتمنى

ان افتح عيني ذات صباح فأجد ان احلامي هذه قد تحققت .. وليس هذا على الله بكثير ..

ـ كلا .. لكن ، لماذا نشرك الله ، دائما في متاعبنا ..

ـ لا ادري ..

بتأفف وضجر ، وهو يتأهب لمتابعة الطريق ، قال :

ـ حاولي ان تحصري تفكيرك بالواقع الذي نحن فيه .. واقعنا نحن الثلاثة ..

بحقد، وهي تلوي شفتيها امتعاضا:

ـ اني اكرهه .. اكرهه ، هذا الواقع القذر ، الدنيء .. اكرهه ..

تضايق الابن في مكانه ، وقال وهو يدير نظراته ما بين والديه :

ـ اماه ، فلنسرع وكفاكما كلاما لن يطعمنا سوى الهم والكدر ..

قال الاب وفوق شفتيه تبرق ابتسامة حزينة :

ـ انت مصيب يا بني .. اما انت ايتها المراة .. لست الوحيدة ، وهنالك فلن أزيد الموقف الا تعقيدا ..

الام بتذمر : ـ لاني امراة .. امراة كغيري من النساء ، قد جبلت كما جبلت غيري من طينة واحدة ، لكن الاقدار لم تكن رحيمة معي فسودت حياتي وجعلتني احترق حتى الموت الف مرة في اليوم ..

ـ لست الوحيدة على اي حال يا ايتها المراة .. لست الوحيدة ، وهنالك الكثيرات غيرك ، وهنالك من هن دون مستواك .. ولكل امراة ظروفها وحظها في الدنيا ..

ـ لا تهمني غيري من النساء ، وتهمني نفسي قبل كل نساء الدنيا ..

الاب بضجر وهو يتطلع في جوف السماء ويلعن في سره :

ـ حكايتنا ستطول .. ومن الخير لنا ان نسرع قبل ان يدركنا الوقت فتهلكنا افكارك هذه يا أيتها المراة التي لا تحاولين ان تفهميني .. فلنسرع ..

و .. تحرك الموكب .. وسار الابن في المقدمة ، ومن وراءه الام ، وعلى بعد خطوة كان الاب يجر جسده جرا من مكانه ليدفعه على السير ..

كان سيرهم بطيئا في لحظاته الاولى .. ثم اخذوا يسرعون ببطء .. اسرع الابن ، وكان ما يزال في مقدمة الموكب ، وكان من الطبيعي ان تلحق به الام ، ويضطر الاب ان يضاعف من سرعته ليبلغهما ..

ومضت لحظات سريعة .. وتحول سيرهم الى ركض سريع ..

واضطربت السماء .. ابرقت ، ثم ارعدت ، ثم انهالت من جوفها الامطار بغزارة .. وغارت اقدامهم في الوحل ، وتبللت ثيابهم ، ولم يأبهوا .. كان اهم ما يهمهم ان يصلوا قبل غيرهم الى المكان الذي سيشتغلون فيه ..

و .. بلغوا مكان العمل ..

اجال الاب بنظراته في ارجاء المكان الكبير يبحث فيه عن سر الموت الذي يلفه من كل الجوانب ، واصغت اذناه لحظة .. وكانت على استعداد لالتقاط صوت دودة تنخر في الارض على بعد ميل ، وانتابته موجة قاتمة من الدهشة .. الصوت .. الاصوات .. اين دوي المكائن الذي يشق الآذان ، الصوت الذي كان يمقته ويتمنى اللحظة لو يدوي والى الابد في أذنيه .. وضجيج العمال الذي كان يملأ كل الدنيا من حوله .. اين هم العمال .. اين .. كان يتمنى لو يسبق كل عمال الارض الى هذا المكان .. الان ، يتمنى لو يجتمع عمال الكون كلهم في هذه البقعة من الارض ليؤمن بأن المكان مكان عمل ..

وسأل الابن امه بلهفة وشوق ورأسه يدور في كل جهة من المكان :

ـ من اين ندخل ..

رد الاب وانفاسه تتلاحق في صدره المتعب :

ـ تعالا من هنا ..

وسارا من خلفه .. ووقف الاب عند منتصف الطريق المؤدي الى المدخل ، وترددت نظراته قليلا تبحث بحيرة واضطراب عن سر هذا السكون القاتل ، وتتابعت انفاسه ، وخفق القلب في الصدر ، واضطرب .. وخامرت نفسه القلقة هواجس شتى .. ومد يده بتردد الى الباب الحديدي الكبير ليدفعه فيفتح لهم الطريق الى الداخل ..

و .. سمعوا صوتا من بعيد يصيح بهم على حين غرة :

ـ قفوا في اماكنكم ..

اجفلوا في مكانهم .. وببطء وتراخي حاول الاب ان يستجمع بعض حيله ويلتفت قليلا الى الوراء ، لكن صيحة اخرى اشد من الاولى واقسى اردعته في الحال وشلت كل قواه :

ـ لا تتحرك .. الم تسمعني ايها الرجل ام تريد ان تعرض حياتك للموت ..

سأل الابن امه وهو يرتعد من الخوف :

ـ ماذا حدث يا أماه .. ماذا حدث ..

ردت الام وانفاسها تلتهب من الخوف في صدرها :

ـ لا تخف يا بني .. لم يحدث ما يخيف ..

همس الاب للأم بصوت مبحوح يخنقه التردد :

ـ هناك شيء نجهله .. وعسى ان تمر هذه الليلة بسلام ..

زمجر الصوت ايضا وهو يقترب منهم :

ـ بلا حركة والا اطلقت عليكم الرصاص .. لا تحاولوا ان تتحركوا ..

واقتربت الاقدام الثقيلة ايضا .. واقتربت .. واقتربت .. وفي كل لحظة كانوا يحسون بانفاسهم يزداد تلاحقها في الصدور ، وبالقلوب تدق بعنف وخوف ..

و .. وجها لوجه ، صافحت نظراتهم الخائفة وجه الرجل الغريب الذي يهددهم بالرصاص ، واحسوا بالمزيد من الخوف يتسرب نحوهم ، وخارت كل قواهم وهم يرون البندقية الكبيرة مسددة اليهم ويده على الزناد .

اراد الاب ان يتكلم ، لكن الرجل

عاجله وهو يسدد بندقيته الى صدره تماما :

ـ ماذا جئتم لتفعلون هنا في هذه الساعة ..

ابتلع الاب انفاسه بصعوبة ،وقال وهو يرخي عينيه الى الارض :

ـ انت الحارس كما ارى ..

قهقه الحارس عاليا ، وقال بسخرية تدعو الى الخوف والحذر :

ـ وانت اللص كما ارى ..

ـ فليسامحك الله ايها الرجل ..

ـ لا تحاول ان تنكر ..

ـ انكر ماذا .. اهذا كلام يقال ايها السيد ..

ـ لصوص .. انتم لصوص .. وجوهكم تقول هذا .. حركاتكم في الظلام تقول هذا .. خوفكم وانتم متلبسون بالجريمة يقول هذا ..

ـ هل ترى لنا اوجه لصوص ..

ـ لا اجد في الوجوه اية مسحة براءة ..

لم تطق المرأة ان تسكت اكثر ،وقد كانت تود لو ان زوجها يفض الموقف، وقالت بحزن يلفه بعض الخوف :

ـ اننا حقا من فقراء الناس ، لكننا لا نرضى ان نوصم باللصوص .. ونحن اشرف من هذه التسمية ايها السيد .. اشرف ..

قال الحارس ونظراته تنصب في عيني المرأة :

ـ اشرف .. كل اللصوص حين يضبطون متلبسين بالجريمة يتخاذلون منذ اللحظة الاولى ويحاولون استجداء من يقبض عليهم .. كلكم هكذا .. لكنكم بهذه الكلمات الرقيقة لن تقنعوني ابدا ..

المرأة ايضا واوصالها ترتعد من الخوف :

ـ اهذا كلام ..

ـ الا يعجبك هذا الكلام .. بالطبع لن يعجبك ، لكني خير من يفهم مثل هذه الزمرة من الناس .. والعشرات من امثالكم قد سبق لي وتعاملت معهم من قبل ان اتعرف عليكم .. واللصوص انواع وانواع .. كالبضاعة تماما .. فيهم النوع الطيب الرقيق المهذب ، وفيهم النوع المتوحش الشرس .. وانتم .. انتم من اي نوع ..

ـ لسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء ..

ـ اسمعي ايتها المرأة .. كنت في اول عهدي بهذه الشغلة اصدق بسرعة ، وكنت امتلك قلبا رقيقا لا يعرف الحقد ولا الغضب .. اتدرين ما الذي سببه لي هذا القلب العطوف الممتلىء رقة .. أتدرين ..

ـ لكننا يا سيد ..

الحارس مقاطعا : قلبي العطوف هذا قد اوقعني في الكثير من المتاعب، وجعل الرؤساء يغضبون علي دائما .. لكني ، وبعد ان تمرست في هذه الشغلة استطعت ان أضع قلبي على الارض واسحقه بأقدامي .. وكما ترين ، لم يبق لي قلب .. واستطعت ان اتوصل من خلال تجاربي الكثيرة مع امثالكم الى شيء .. هل تريدين ان تعرفي ما هو ..

لم يقل احدهم اي شيء ، وعاد الحارس الى القول :

ـ تعلمت ان لا أعطف ولا اعفو على الذين يخالفون القانون ويعاكسونه.. اتعرفون لماذا .. اتعرفون .. لانهم يضرون بالمصلحة العامة ..

نفد صبر الاب ، وقال وما يزال خوفه في تزايد من البندقية المصوبة نحوه :

ـ اية مصلحة عامة هذه يا سيد..

ـ المصلحة العامة .. هل تريد ان اشرح لك هذه العبارة ..

ـ كلا ، لا أريد .. وأؤكد لك اننا لسنا من هؤلاء ..

ـ كل الذين قد قبضت عليهم اكدوا لي هذا .. ثم ، بعد التحقيق ثبت انهم من هذه الزمرة المخربة التي تدوس على القانون وتضر بالمصلحة العامة ..

ـ لكننا لم نفعل اي شيء يضر بالمصلحة العامة ..

ـ يقول لم نفعل .. وماذا تريدون ان تفعلوا اكثر من هذا الذي فعلتموه .. ما الذي تريد ان تفعله اكثر .. قل لي .. قل لي ، ماذا تريد ان تفعل اكثر ..

ـ انت قل لي ما الذي فعلناه لننال منك كل هذا الغضب ..

ـ انتم دستم على القانون .. والقانون ، هل تعرف ما هو القانون ايها الرجل الجاهل .. هل تعرف ماذا تعني كلمة القانون .. هل تعرف ..

ـ لا اريد ان اعرف ..

ـ بالطبع لا تريد .. انت تريد ان تسرق فماذا تفعل بالقانون ..

ضاق صدر الاب بالحارس ،وقال ونظراته تتيه في كل صوب من المكان تبحث فيه عمن يعرفه من الناس لينقذوه :

ـ قد لا تصدق لو قلت لك اننا جئنا من مكان بعيد الى هذا المكان وتحملنا كل هذا العناء من اجل العمل في هذا المكان .. وقد اوعدوني البارحة ان يشغلوني هنا ، وهذه زوجتي ، وهذا ولدي ..

قال الحارس بيقظة وحذر :

ـ قل غير هذا الكلام .. ومهما ستقول فلن يشفع لك عندي ..

قالت الزوجة وهي تردد نظراتها ما بين زوجها والحارس :

ـ انها الحقيقة .. وصدقنا ..

ـ اية حقيقة هذه .. وما قيمة الحقيقة هذه بعد ذهابكم .. قولي لي ، هل ستبحث معي هذه التي اسمها حقيقة عنكم لو ثبت انكم من اللصوص ..

ـ لكننا لسنا منهم .. الا تصدق..

ـ لا اصدق ؟ .. كلا .. لا اصدق .. واين هو الدليل الذي استند عليه لأصدق مثل هذه الاقوال الفارغة .. اريد الدليل .. اين هو الدليل ..

ـ وجوهنا فيها الدليل .. هل ترى لنا اوجه لصوص .. أهذه وجوه لصوص ام وجوه اناس فقراء قد شردهم الفقر واقلقتهم الحاجة الى اللقمة فأقبلوا من أبعد ابعاد الارض بحثا عن اي شيء يسدون به رمقهم .. انظر الينا ، وماذا

الملاح التائه

الى روح الشاعر الخالد علي محمود طه في ذكراه السادسة عشرة

★ ★ ★

هذي ضفاف النيل كل صباح — ترنو وترجو عودة الملاح
أين الشراع الطلق أين خفوقه — في الثائر العاتي وفي الضحضاح
قد كان يرسو في الضفاف محدقا — في الافق عبر ربى وعبر بطاح
ويردد النغمات من أشعاره — ما بين اودية الربيع الضاحي
فتهب اسراب العذارى في الضحى — نشوى لخفق شراعه اللماح

يا أيها الملاح عد لشواطىء — من بعد نأيك في أسى ونواح
ان الضفاف الخضر أمسى حلمها — في كل ليل أوبة الملاح
تبغي شراعا كان يسبح هائما — في النيل بين عرائس الادواح

ان الندامى لم يغنوا للهوى — لحنا ولا رفعوا كؤوس الراح
يتساءلون عن ابتعادك كلما — غنى الربيع بلحنك المراح

يا أيها الشادون في ركب الهوى — قد ضاع مزمار الهوى في الساح
وتفرق السمار بعد ضياعه — فاليوم ليس رجوعهم بمتاح

قد تاه ملاح الضفاف وضاع في — لجج البحار وبين عصف رياح

البحرين — احمد محمد الخليفة

تريد اكثر ..

تردد الحارس قليلا قبل ان يقول ونظراته تتفحص المرأة والرجل معا ، ثم تستقر على الابن :

ـ لكن .. الا تعلمون ان العمل يتوقف هنا كلما تهطل الامطار .. الا تعلمون ..

تناسى الاب في لحظة كل الدنيا ، وتناسى البندقية المصوبة الى صدره، وهب من مكانه فجأة على كلمات الحارس الاخيرة ، وتمتم من خلال موجة الحزن والكآبة التي اخذت تظلل كل شيء من حوله لتعيده الى العدم ، وقال :

ـ لماذا لا يشتغلون .. ما شأن الشغل بالمطر ..

رد الحارس ببطء وهو ينزل بندقيته الى الارض :

ـ لانهم يحفرون الاساس .. هل تريد ان تعرف ما هو الاساس ..

ـ اعرف .. وقد اصبنا بخيبة امل كبيرة .. واأسفاه ..

تردد الحارس ايضا ، وقال :

ـ عودوا من حيث اقبلتم ..

قالت المرأة وهي تنفض عن كواهلها كل الخوف الذي كان قد اعتورها :

ـ هل اقتنعت بأننا لسنا من اللصوص ..

رد الحارس بجفاء وهو يرمقها ببلاهة :

ـ كلا .. لكن ، من الافضل ان اتركم لحالكم ، فلربما كنتم من غير هؤلاء ..

تمتم الابن وهو يتعلق بعيني والده المتعبتين :

ـ هل نعود ..

ـ ليس لنا غير العودة .. هيا بنا ..

قالت المرأة باشفاق :

ـ فلنركض .. لعلنا نصل كوخنا بسرعة ..

قال الرجل بيأس ونظراته ما تزال تائهة تبحث في المكان عن بارقة امل ضئيلة :

ـ لم يعد للسرعة في حسابنا اي مكان ..

و .. بمنتهى التثاقل ، وبتراخي وضيق ، قفلوا عائدين من حيث اقبلوا .

بغداد — حازم مراد

عيسى منون - بولس سويد

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - الشيخ عيسى منـون

على ضاحية مشرقة من ضواحي بيت المقدس تجثم «عين كارم» البلدة الصغيرة الوادعة التي تظللها اشجار السرو والصنوبر وتزينها الدوالي والتين والزيتون . وفي هـذه «العروس المزينة» ولد الشيخ عيسى منون عـام ١٨٨٨ ونشأ وترعرع ثم رحل الى مصر طلبا للعلم في الازهـر الشريف على يد كبار علمائه .

وفي عهد طفولته لمح فيه جده أحمد منون مخايـل النجابة والاقبال على الدرس والانكباب على المطالعة فكان يشجعه على المضي في ذلك ويهيء للحفيد ما يحقق رغباته ويشبع نهم نفسه الطموح . وفي تلك السن المبكرة هيأ الله له استاذا عالما اختصه بمزيد من العلم هو الشيخ يوسف الحبية فقرأ عليه مبادىء العلوم من النحو والصرف والفقه والتوحيد فتفوق على أقرانه واستوعب العلوم المقررة في منهاج الدراسة من الحساب والتاريخ والتقويم وجودة الخط ، الامر الذي حمل استاذه على ان يختاره لمشاركته في تدريس الطلاب وتحمل اعباء المدرسة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونظرا لما لمس الاستاذ في تلميذه من ذكاء نادر وقدرة تامة على اداء الدروس للطلاب شجعه على تأدية امتحـان يعقد في مكتب مدير معارف القدس لاختيار مساعدللشيخ حبيه . وبعد ان تقدم الشاب النجيب للامتحـان حـاز اعجاب المشرفين اذ رأوا ان كفايته العلمية وثقافته الممتازة تؤهلانه لان يكون استاذا في احدى ضواحي القدس لكنه آثر البقاء مدرسا في مسقط راسه .

الى الازهر الشريف : وبعد عام أمضاه الشيخ عيسى في عمله الجديد بارح والديه عام ١٩٠٤ مبحرا من ثغر يافا المدينة العربية الى مصر وانتسب الى الازهر لتلقـي العلوم من منابعها الصافية وانهارها المتدفقة وهناك أدرك نخبة ممتازة من الشيوخ الاجلاء الافذاذ أمثال : الشيـخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي والشيخ عبدالحكيم عطا والشيخ أبو عليان ـ وقد كان آية من آيات الله في دقة الفهم واشتهر عنـه ذهنه لم يكن يقبل الخطأ ـ والشيخ محمد بخيت والامام الشيخ محمد عبده والشيخ دسوقي العربي والشيخ أحمد الرفاعي والشيخ احمد نصر . وفي هذا المعهد الشريف حبس نفســه على طلـب العلم بعزيمـة صادقة وهمة لا تعـرف الملـل .

وبعد انتساب الشيخ منون للازهر بخمس سنوات ادخلت مشيخته الانظمة الحديثة ووضعت الطلاب فـي سنوات دراسية تناسب مؤهلاتهم العلمية وجعلت مـدة الدراسة اثني عشر عاما ، ولهذا الفرض أجرت اختبارات وعقدت لجانا لفحص الطلاب فأسفـرت نتيجـة امتحان الشيخ عن الحاقه بالسنة التاسعة الدراسية مع انه لـم يمض على انتسابه للازهر الا خمس سنوات ونال أعلـى الشهادات وهذا تفصيلها :

شهادة الاهلية : في عام ١٩١١ دخل امتحان هـذه الشهادة من الدرجة الاولى وكان موضع أعجاب اساتذتـه وتقديرهم . شهادة العالمية : بعد أن نال الشيخ منـون شهادة الاهلية مـن الدرجة الاولى سمت به همته الـى التقدم لامتحان شهادة العالمية وكانت عهدذاك أعلى درجة علمية في سائر انحاء العالم الاسلامي ، ولقد دلت أجوبته على ذكاء نادر وذهن صاف وطلاقة لسان وجودة بيـان ، وظهر أمام اعضاء لجنة الامتحان شخصية علمية فذة .

ومما يروى ان الشيخ حسين والي دخل على اللجنة في ذلك الحين وجلس يستمع الى اجوبة الشيخ منـون والتفت اليه متسائلا : « اني لأعلم بأن ابناء القطر السوري مشهورون بالادب وقرض الشعر وسأرى الساعة اذا كانت هذه الشهرة في محلها اولا ! » ثم وجـه للشيـخ سؤالا دقيقا فـي اجـزاء الـدوائر العروضيـة فأجاب : « ان العروضيين انما فعلوا ذلك لاستيفاء اجزاء الدائرة » فسر الشيخ والي بجواب دقيق لسؤال غامض لا يتنبه اليـه او يجيب عنه الا من اوتي حظا من الفطنة والذكاء .

التدريس في الازهر : كان الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الازهر في عداد اعضاء اللجنة التي امتحنت الشيخ منون ولقد أسر في نفسه ان ينتفع بهذا الشاب الفلسطيني اللامع وينفع به ابناء الازهر لما أنس فيه من براعة وسعـة أفق فعينه مدرسا في القسم الاولي وبعد سنوات رقـي مدرسا في القسم الثانوي فمدرسا في القسم العالي وفي هذه الفترة وضع مؤلفه النفيس «نبـراس العقول فـي تحقيق القياس عند علماء الاصول» .

وحينما انشئت أقسام تخصـص مـادة التوحيـد واصول الدين ، وهي التي تخرج اساتذة للتدريس فـي الكليات ، انتخب الشيخ منون استاذا لتدريس هذه المادة.

وفي عام ١٩٣٩ نشر كتابه « نبراس العقول فـي تحقيق القياس عند علماء الاصول » فتقدم به الى جماعة كبار العلماء للحصول على عضويتهـا فانتخـب عضـوا بالاجماع في الجماعة ومنح كسوة التشريفة من الدرجـة الاولى عـام ١٩٤١ .

انتخابه شيخا لرواق الشوام : وبعد وفاة الشيـخ

يحيى الخليلي شيخ رواق الشوام انتخب الشيخ منون بالاجماع شيخا لهذا الرواق وكانت باكورة اعماله عنايته بالاوقاف المحبوسة على الطلاب ، فجدد دارسها ورمم ما تداعى منها .. ومن مآثره الحميدة انه جعل من بيته العامر ندوة علمية يغشاها الطلاب ليغترفوا من منهله العذب وانه حمل ذوي الشأن في الجامعة الازهرية على فتح أبواب مدرسة القضاء الشرعي المغلقة في وجوه الطلاب غير المصريين اذ كان من شروط الانتساب ان يكون الطالب حاملا لشهادة العالمية المصرية ، وان يكون حنفي المذهب فذلل الصعاب في وجوه الطلاب .

وثمة مأثرة اخرى انه سعى الى اقناع ولاة الامر بقبول الطلاب في كليات الازهر وهي : كلية الشريعة وكلية اصول الدين وكلية اللغة العربية وكان من شروط الانتساب ان يكون الطالب حائزا على شهادة الدراسة الثانوية ولم يكن هذا الامر ميسورا للطلبة الغرباء الوافدين من شتى انحاء العالم الاسلامي .

طلاب البعوث الاسلامية : كان الكثيرون من طلاب البعوث الاسلامية يفدون الى الجامع الازهر وهم لا يجيدون اللغة العربية ، وكانت الانظمة المعمول بها لا تفي بحاجاتهم العلمية ولا تحقق الغاية التي من أجلها فارقوا أوطانهم ، فضج الطلاب من هذا الوضع ورجوا الشيخ منون ان يطلع ذوي الشأن على مبلغ الضرر الذي يصيبهم فسعى الى استصدار قرار من فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر بتأليف لجنة من بعض مشايخ الاروقة برئاسة الشيخ منون للنظر في حالة أولئك الطلاب وشكاواهم ونسبت للشيخ الاكبر فتح أبواب كليات الازهر والاقسام النظامية في وجوههم .

الطلاب الفلسطينيون : وبعد ان نفضت بريطانيا يديها من انتدابها على فلسطين تمهيدا لقيام دولة اسرائيل وأجلت عرب فلسطين عن ديارهم وقعت الطامة الكبرى وسقطت مدن وقرى فلسطينية فانقطعت موارد الطلاب الفلسطينيين المنتسبين الى معاهد الازهر الشريف وكلياته واقسامه فهب الشيخ منون الى جمع تبرعات طائلة لمساعدتهم وتوزيع الاعانات المالية عليهم .

مشيخة كلية اصول الدين : وفي خريف عام ١٩٤٤ اسندت هذه المشيخة للشيخ منون تقديرا لعلمه واخلاصه في عمله وسارت الدراسة في عهده سيرا حميدا وأقبل الطلاب على اداء واجباتهم على أحسن وجه .

مشيخة كلية الشريعة : وفي ربيع عام ١٩٤٦ اسندت هذه المشيخة للشيخ منون وكلية الشريعة في الازهر تعد بحق أعظم كلياته واجلها شأنا واكثرها اهمية اذ ينتظم في سلكها العديد الاوفر من طلاب البعوث الاسلامية وهي التي تخرج للامة العلماء والاساتذة والمدرسين والقضاة الشرعيين ورجال المحاماة .

لما قصد الشيخ منون كلية الشريعة لمزاولة عمله الجديد لمس ان الدراسة هناك ليست منتظمة الفصول لاسباب تتصل بظروف سياسية كانت تسود ذلك العهد وعلم ان نفرا من طلاب الكلية قد فصلوا وان لفيفا من الاساتذة والمراقبين نقلوا الى المعاهد الدينية وان جملة اسباب حملت طلاب الكلية على الانصراف عن الدراسة تضامنا مع المفصولين ، فعمل فضيلته على تسوية الامور واعادة الطلاب المفصولين والاساتذة المبعدين الى مقاعدهم ، وبذلك زالت مخاوفهم وهدأت نفوسهم . وأمضى الشيخ منون زهاء عشر سنوات عميدا لكلية الشريعة فساس شؤونها سياسة مصلح خبير وغرس في نفوس طلابها الورع والتقوى والعمل على ضوء كتاب الله وهدي رسالة التوحيد .

يعتزل العمل : وبعد ان أمضى الشيخ منون في خدمة الازهر الشريف اثنتين واربعين سنة وشهرين كاملين في عمل مثمر متواصل طلب من مشيخة الازهر اعتزال العمل ليتفرغ لبحوثه العلمية الخاصة ، بعيدا عن قيود الوظيفة ومتطلباتها . وتقديرا للجهود التي بذلها في حقل الازهر الشريف أقام اساتذة كلية الشريعة وطلابها حفلة تكريم لفضيلته وفي الكلمة التي القاها أوصاهم بالازهر خيرا وحضهم على ان يكونوا رواد رحمة ومعروف وخير . ومن قصيدة القاها الشاعر الشيخ ابراهيم علي أبو الخشب قوله :

شيخي ولست أطيل المدح مبتعدا	في القول أو أرسل الاوزان مقتربا
أرضيت ربك فيما كنت تفعله	من واجب وصنعت الخير محتسبا
حتى بلغت مني هيهات يبلغها	سواك مهما عدا في السير أو وثبا
ونحن حولك ود خالص ، وهوى	محض يدوم على ايامنا عجبا
باه الملوك بنا واسخر بما ملكوا	ملكت منا المقال الحلو والادبا

في لجنة الفتوى : ولم يمض على اعتزال الشيخ منون العمل أيام معدودات حتى تلقى كتابا من فضيلة شيخ الجامع الازهر يدعوه الى مواصلة عمله في لجنة الفتوى بالازهر ويعرب عن امله في ان لا يحرم الازهر من جهوده وبحوثه العلمية .

في لجنة الحديث : وفي آخر حياته انتخب رئيسا للجنة الحديث التي الفت في الازهر لمراجعة كتاب «الجمع بين الصحيحين» الذي اهتمت مشيخة الازهر باخراجه خدمة للسنة الكريمة ، وظل رحمه الله يعمل في لجنة الحديث هذه بهمة ومضاء عزيمة حتى وافاه الاجل المحتوم .

وفي ليلة الاثنين مساء الاحد الموافق ٦ كانون الثاني ١٩٥٧ فاضت روح هذا العالم الجليل ونعته مشيخة الازهر وكليات الشريعة واصول الدين واللغة العربية ومعهد القاهرة ومعهد الزقازيق والهيئة العربية العليا لفلسطين ورابطة الطلاب الفلسطينيين بمصر كما نعاه سماحة الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا الى العالمين العربي والاسلامي ونوه بمكانة علمه وتبحره في العلوم الاسلامية. وختم سماحته نعيه الشيخ عيسى بقوله :

« ولقد عاش رحمه الله وفيا لمصر العزيزة كما كان وفيا لاهله وقومه بفلسطين ، ولو شاء رحمه الله لتولى اكبر المناصب العلمية في وطنه الاول ولكنه كان يرى في بقائه بمصر نفعا أوسع لطلاب العلم من مختلف البلاد الاسلامية ، واستمر على ذلك مؤديا لواجبه الديني والعلمي حتى وافاه الاجل وانتقل الى رحمة ربه راضيا مرضيا فكانت وفاته خسارة كبرى حلت بالمسلمين بفقد هذا العلامة الجليل الذي قل نظيره بين أهل العلم والدين » .

ودفن هذا العلم الفذ في قرافة الامام الشافعي بالقاهرة .

من آثاره القلمية : ١ ـ كتاب «نبراس العقول في تحقيق القياس عند علماء الاصول » .

٢ ـ كتاب « المجموع » للامام النووي الحافظ الورع وفيه شرح لمذاهب العلماء كلهم ، بعد ان تم طبع الاجزاء التسعة من كتاب « المجموع » توفي الامام النووي قبل اتمام الجزء العاشر فرأى الشيخ عيسى منون ان هذا الكتاب عظيم الشأن ومنزلته في الفقه الاسلامي عامة وفقه الامام الشافعي خاصة لا يدانيه فيها مدان ، ونظرا لجلال قدر هذا الكتاب وسعة مباحثه وشموله التام لآراء الائمة ومذاهبهم شمر عن ساعد جده فبدأ عمله من أول كتاب النكاح لاهمية مباحث الاحوال الشخصية وحاجة اهل العصر الى تدوينها ، وقد انجز من هذا العمل الجبار نحوا من مئة كراس من القطع الكبير ، والكراس الواحد يقع في اربعين صفحة ولكن وفاته حالت دون اتمام هذا المشروع الجليل .

٣ ـ رسالة في مناسك الحج .

٤ ـ محاضرات في التوحيد واصول الفقه .

٥ ـ رسالة في الرد على القائلين بجواز ترجمة القرآن .

٦ ـ رسالة في الرد على من يدعون الاجتهاد في هذا الزمان .

٧ ـ رسالة في حكم قتل المرتد .

وكان الشيخ منون رحمه الله يشترك مع جماعة كبار العلماء في اذاعة محاضرات دينية في شهر رمضان المبارك تذاع على العالمين العربي والاسلامي وفيها يتناول تفسير بعض آي الذكر الحكيم ويشير الى كثير من اسرار الشريعة السمحاء .

نموذج من نثره : « (١) الترجمة هي ابانة معنى كلام من لغة من اللغات بكلام آخر من لغة اخرى . قال في «المصباح» : يقال ترجم كلام غيره اذا عبر عنه بلغة أخرى. من المعلوم عرفا ان ترجمة اي كتاب أو رسالة تكون مساوية للاصل ومحاذية له في حكاية المعنى ونسبته الى ما هو منسوب اليه في الاصل . فترجمة « **انا انزلناه في ليلة القدر** » تكون بلفظ من لغة اخرى يفيد الاخبار من الله بأنه أنزل القرآن في ليلة القدر ولا تكون الترجمة حقيقية الا اذا اتفقت الفاظ اللغتين في افادة هذا المعنى من غير زيادة ولا نقصان ، وحينئذ يجوز ان تحل الترجمة محل الاصل وتستوي اللغتان في الاعتماد عليهما والاحتجاج بكل منهما عند الحاجة الى العمل بهذا المعنى ، ولا يتحقق ذلك الا اذا كان المترجم حاذقا للغتين واقفا على مراد المتكلم الاول من كلامه بطريق من الطرق دون الاعتماد على مجرد فهم كلامه لمعرفته بأصول لغته . وبغير ذلك تكون الترجمة تقريبية وتتفاوت في القرب من الاصل والبعد عنه حسب قوة المترجم وضعفه .

والترجمة التقريبية لا تحل محل الاصل في الاعتماد عليها في موطن العمل المبنى على مقتضى ما تفيده النصوص، لكن العرف العام بين الناس يعتبر الترجمة حالة محل الاصل مطلقا سواء كانت حقيقية او تقريبية وسواء كانت الترجمة واحدة او متعددة من لغة واحدة او من عدة لغات، وسواء كانت المتعددة متفقة او مختلفة ، كترجمة التوراة والانجيل ، فانهما تسمى في العرف بالتوراة والانجيل ، وككتاب كلية ودمنة لبيديا الفيلسوف الهندي فان اصله باللغة الهندية وترجم الى عدة لغات ومنها العربية ويسمى الجميع كليلة ودمنة وككتاب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » الذي ترجمه المرحوم فتحي زغلول فانه يسمى بهذا الاسم في ثوبه العربي كما يسمى بذلك في ثوبه الانجليزي . وهكذا كثير من الكتب المترجمة لا يتحاشى الناس عن اطلاق اسم الاصل على الترجمة من غير تصريح بها وذلك لاعتقادهم ان الترجمة والاصل شيء واحد لا يختلفان الا في اللغة .

فلو عقدت معاهدة بين دولتين مختلفتي اللسان ووضعت موادها بلغة احدى الدولتين بمشاركة اولي الامر من الدولة الثانية العارفين بتلك اللغة ثم ترجمت الدولة الثانية تلك المعاهدة بلغتها لا تكون تلك الترجمة معتمدة عند الدولة الاولى بحيث يصح الرجوع اليها عند الاختلاف في تطبيقها الا اذا كانت تلك الترجمة معتمدة من تلك الدولة : بأن يوافق على نصوصها بتلك اللغة أولو الامر منها عن العارفين بلغة الدولة الثانية ، وحينئذ يستوي اصل المعاهدة وترجمتها في كل شيء : في الاسم والمراعاة في التطبيق والرجوع الى نصوص ايتهما عند الاختلاف بين الدولتين » .

(١) في عام ١٩٥٥ اهتم المؤتمر الاسلامي بالقاهرة بموضوع ترجمة القرآن الكريم ووجه الدعوة الى الكثيرين من كبار علماء الاسلام لابداء رايهم في هذا الموضوع الخطير فنشر الشيخ منون رده ببيان مستفيض جاء في ٢٦ صفحة والكلمة المنشورة كنموذج لنشر فضيلته هي مقدمة ذلك البيان .

٢ ـ الاب بولس سويد

في بلدة عيلبون بفلسطين ولد الاب بولس سويد عام ١٩٠٧ ومنذ حداثته سمع صوت الله يدعوه الى ارتداء المسوح ، فلبى النداء ودخل المدرسة الاكليركية في دير المخلص

قرب صيدا عام ١٩٢٠ وفيه عكف على درس علم اللاهوت والتعمق في اللغة العربية فبرع فيها وكانت المطالعة هوايته الكبرى .

وفي عيد الصعود من عام ١٩٣٣ سيم شماسا انجيليا فكاهنا وبعد سيامته قضى ثلاث سنوات يعلم في دير المخلص ثم نقل استاذا الى المدرسة البطريركية في بيروت يدرس الادب العربي حوالى عشر سنوات واختصر كتاب « الانسان ذلك المجهول » للدكتور كاريل ، فلمع اسمه في عالم الادب واشتهر كصاحب قلم خصب واخذت السلطات اللبنانية والفرنسية تسندان اليه مهمة فحص الطلاب في امتحانات البكالوريا .

وتقديرا من الحكومة الفرنسية لنبوغ هذا الكاهن ذي الموهبة النادرة في فن الترجمة والتعريب قدمت له منحة مجانية للتخصص في الادب الفرنسي ، فقصد باريس عام ١٩٤٧ ودخل جامعة السوربون ، وبعد خمس سنوات سلخها في مدينة النور باحثا منقبا عاد الى لبنان عام ١٩٥٢ مسلحا بشهادة الدكتوراه وكانت الاطروحة التي قدمها تدور حول « الشيخ ابراهيم اليازجي واثره البناء في تجويد النثر العربي وتحضيره في القرن التاسع عشر من القرن العشرين » .

« ... وقد جلا (١) في اطروحته هذه وجه الشيخ ابراهيم وبين قسماته ومقومات شخصيته ، ونفض عنها ما علق بها من لهث المتشدقين والمتحذلقين ، ومن فحيح المتعنتين والمتزمتين ، وصفار النفوس والقلوب ، بحيث برز الشيخ ابراهيم من هذه الدراسة في صورته الكاملة المجلوة ، واطاره الوسيم في الزمان والمكان والمقام . كل ذلك بلغة وبيان وعبارة شهد بصحتها وسلامتها وصلاحها اعضاء اللجنة الفاحصة ، فنوهوا بذلك عاليا في المناقشة التي نوقش بها الكتاب . »

وفي لبنان لم يمكث الاب سويد طويلا لان آفاقا واسعة كانت تنتظره ليعمل فيها بكفاءة ونشاط فبارح لبنان عام ١٩٥٤ الى مكسيكو عاصمة المكسيك لادارة شؤون ابنائه المغتربين من طائفة الروم الملكيين .

وفي صيف عام ١٩٥٥ يمم باريس ثانية لمعالجة داء اصاب عينه ، فانتهز الفرصة ليحمل الحكومة الفرنسية على تحقيق اقتراح قدمه لتأليف لجنة خاصة تضطلع بنقل روائع الادب الفرنسي الى العربية ، ثم عاد الى المكسيك فوافته المنية فجأة في ١٩ كانون الاول ١٩٥٥ قبل ان يرى نتائج الاقتراح الذي قدمه خدمة للثقافة العربية ، وبوفاة هذا الاب العالم خسر الادبان العربي والفرنسي اديبا موهوبا كان يلم بخمس لغات حية هي العربية والفرنسية والايطالية واليونانية واللاتينية .

« ... استبحر (٢) علمه بالادب العربي ، ولا سيما بالحديث منه ، فوقف على التيارات الكبرى وربط ما بينها من عوامل الاثر والتأثر ، والتفاعل والانفعال . فاستقامت له من ذلك كله جملة عامرة متينة ، حسنة السبك ، مفتولة العضل ، رشيقة القوام ، راسخة القدم ، وطيدة التركيب ، جزلة في انسيابها وانسياقها . وقد تكشف عن موهبة نادرة في الترجمة والتعريب ، بعد ان استحكم من الالفاظ والمباني ، والمصطلحات الفنية والمشتقات العلمية ، ما يجعلك في حيرة من امرك في التفضيل بين الاصل والترجمة ، لما في الترجمة ، ترجمته ، من توفيق وتجال ومحاكاة ، ولما في عبارته من سبك وصب ومن جناس وايناس وجرس ونبرة موسيقية ! »

من آثاره القلمية بالعربية :

١ ــ الانسان ذلك المجهول ، اقتباس عن الدكتور كاريل .

٢ ــ القديس بولس . ٣ ــ مقالات في الرسالة المخلصية .

٤ ــ الصلاة ، معرب عن الدكتور كاريل .

وهنالك خمسة كتب مخطوطة لم تنشر بعد هي :

١ ــ حياة ابراهيم اليازجي . ٢ ــ التعريب : نظرات ونماذج . ٣ ــ الرجل الذي قتل هتلر . ٤ ــ دراسات حول الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر . ٥ ــ الانسان ذلك المجهول (ترجمة كاملة) .

اما آثار قلمه بالفرنسية فهذا تفصيلها :

١ ــ ابراهيم اليازجي : الرجل والاديب (اطروحة دكتوراه في جامعة السوربون وهي تحت الطبع في الجامعة اللبنانية) . ٢ ــ امين الريحاني : الكاتب . ٣ ــ (اسم الفاعل) في اللغة العامية والفصحى .

نموذج من نثره : « وكانت (٣) السحب تتعالى على القمر ، كما يرى الدخان متعاليا على الحريق ، وكانت الغابات حالكة يمتد سوادها حتى الافق . وكنا نسير سكوتا في العشب الندي وملتف الشربين ، اذ أبصرنا في ظلال اشجار الراتينج آثار الاظفار الكبيرة للذئاب المترحلة التي كنا قد اخذنا عليها طريقها ، فأوجسنا حابسين أنفسنا لا تنبعث لنا قدم . ولم تكن الغابة ولا السهل يطلقان زفرة في الهواء ، خلا ان الدوارة الشجية كانت ترسل صيحاتها الى عنان السماء . ذلك لان الهواء اذا علا عن الارضين لم يكن دانية يمس الا الابراج المتفردة ، وكان يخيل ان اشجار السنديان المتضامة في المنحنى مع الجلامد تستريح مسترسلة الى النوم على مرافقها . كان اذن كل شيء ساكنا ، اذ خفض اكبر الصيادين المنبثين في الطلب رأسه جاثما على الرمل ثم قال في خفوت ، وهو الذي لم يخطىء قط في مقال ، ان هذه الاثار الحديثة تدل

(١) الرسالة المخلصية عدد ٢ شباط ١٩٥٦ بقلم الاستاذ يوسف أسعد داغر . (٢) المصدر السابق . (٣) من مقال بعنوان «موت الذئب» للشاعر الفرنسي الفرد دي فيني وقد عربه المترجم له ونشره في العدد العاشر (١٩٤٦) من «الرسالة المخلصية» .

نداء

يا غافلا عن فؤاد ذاكر أبدا ... ومبقيا فيه أشجانا وأحزانا
عشنا على الدهر أياما سأذكرها ... ما عشت في الدهر ترجيعا وتحنانا
كانت قصارا ، كأيام الربيع ، حوت ... من كل فن من اللذات ألوانا
صفا ودادك لي ، حتى نسيت به ... أحداث دهري تعذيبا وحرمانا
وخلت ان الليالي سالمت وصفت ... وقلت : يا دهر نسيانا وغفرانا
واستبشر القلب بالآمال يرفعها ... كالطفل • يبني قصور الرمل فرحانا
حتى عدا قدر قاس فحطمها ... وبدل الامل المرجو أشجانا

يا ويح للدهر : غنانا فأسعدنا ... حتى اذا اللحن هز القلب أبكانا
يا من أراه لقلبي واحدا أحدا ... لا يرتجى ، غيره ، في الناس انسانا
ومن حفظت له عهد الهوى أبدا ... لا تستطيع له الايام سلوانا
: هل أنت باق على ودي وذاكره..؟ ... أم استحال — على الايام — نسيانا
ان غبت عني عمر الدهر مغتربا ... فود قلبي باق حيثما كانا

مصر الجديدة — محمود الشرقاوي

على مشية ذئبين عظيمين بصحبة جرويهما وعلى رسوم مخالبهما الفلابة .

اعددنا جميعنا عند ذاك مدانا ، واذ أخفينا بنادقنا ، وبياضها الشديد اللمعان ، أخذنا نتقدم خطوة خطوة مباعدين أغصان الشجر ، ثم وقف ثلاثة من الرفاق ووقفت أجيل طرفي فيما يتلمسونه ، واذا بي أبصر عينين تشعان نورا ، وأرى دونهما الى العداء اربعة أشباح لطيفة تتراقص على ضوء القمر بين أشجار الاريقي ، فكانت اشباحها متشابهة وكان رقصها كذلك .

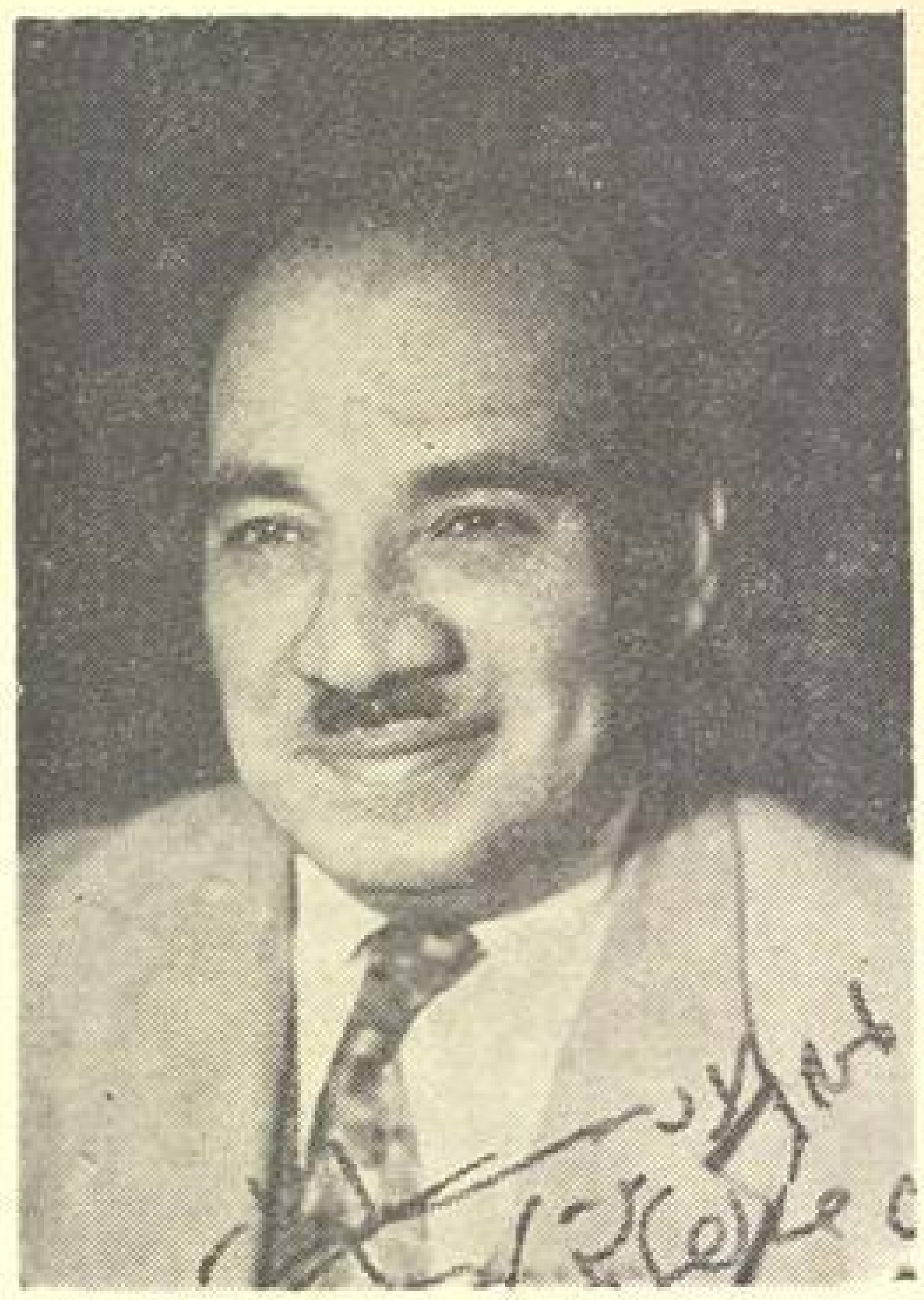
أما جروا الذئب فكانا يتلاعبان في سكوت وهما على يقين من انه على قيد خطوات دونهما ينيط الرجل عدوهما وراء الجدران مهوما . وكان الذئب قائما ، والى جذع شجرة دونه تستند الذئبة مريحة أشبه ما تكون بتلك التي نحتها الرومان من حجر وعبدوها قدما . ثم جاء وجثم ونشبت مخالبه الحادة في الرمل فنصب فخذيه مقعيا ، وأيقن انه هالك لا محالة اذا كان قد أخذ بغتة ، فقطعت عليه طريقه ، وسدت سبله كلها . اذ ذاك تناول بين شدقيه المتوقدين رصاص بنادقنا ، وكانت مدانا المرهفة تتشابك كالملازم في رحيب احشائه ، حتى آخر لحظة اذ قضى السلوقي خنقا يتمرغ على رجليه ، قبل حينه بكثير ، حينئذ تركه الذئب ، ثم أخذ يحدجنا ببصره. وظلت مدانا في خاصرتيه الى نصبها وقد أثبتته على العشب مضرجا بدمه ، وكانت بنادقنا تحيط به في شبه هالة مشؤومة . على انه ما زال يحدق الينا ثم سجا على الارض من جديد وهو يلحس الدم المترشش على شدقيه غير متنازل الى البحث عن معرفة أمر هلاكه بل أطبق أجفانه وذاق حتفه ولم يرسل صيحة واحدة .

فوقفت مسندا رأسي الى بندقيتي الفارغة مفكرا غير قادر على تمالك نفسي في اللحاق بالذئبة وجرويها وقد أراد الثلاثة انتظار الذئب ، وبدلي ان أيمه الجميلة ، لولا جرواها ، ما تركته وحده يقاسي ذلك الازل الشديد ، ولكن واجبها كان يقضي عليها بأن تنقذهما سالمين حتى تستطيع ان تلقي عليهما كيف يحسنان احتمال الجوع ، ويتنكبان حياتهما عقد عهد المدن الذي قعه الانسان مع تلك الدواجن التي تسعى دائبة في سبيل مستقرها ان تطرد أمامه ملاك الغاب والصف الاولين .

فوا أسفاه ! لقد فكرت مليا فتولاني الحياء منا نحن البشر اذ نحن برغم هذا الاسم العظيم أوهى ما نكون منة! أما كيف يجب ان تفارق الحياة وآلامها جميعها ، فذلك ما تعرفينه يقينا أنت أيتها الضواري العظيمة ! واذا فكر المرء في ما كان على هذه الارض ، وما يترك بعده ، أيقن أن الصمت وحده عظيم ، وسائر ما بقي وهن .

أجل ! لقد فهمتك أيها الراحل الوحشي ، وان نظرتك الاخيرة قد نفذت الى قلبي ! وكأنها كانت تقول : « ان استطعت فاجعل نفسك تبلغ بالدرس والتفكير ذلك الشأو الاعلى من الاباء الرواقي الذي بلغته أولا أنا وليد الغاب . ان الانين والبكاء والدعاء ، كلها خور على السواء. فقم حازما بواجبك الطويل والثقيل في السبيل الذي شاء المصير ان يدعوك الى سلوكه ثم بعد كن نظيري ! قاس العذاب واقض نحبك دون ان تنطق ! » .

عمان — الاردن — البدوي الملثم



انـور الجنـدي

عبدالرحمن الرافعي

بقلم انـور الجندي

***

عند ما نعي عبدالرحمن الرافعي (٣ ــ ١٢ ــ ١٩٦٦) الي، كان ثبتا لتاريخ طويل وذكريات عديدة تجري أمام خاطري حية متجددة ، فمنذ أيام الطلب في الصعيد ، كنت أقرأ اسمه في صفحات مجلة السياسة الاسبوعية ، أمام كتابه « تاريخ الحركة القومية » الذي بدا اصداره عام ١٩٢٩ ، ووالى العمل ، كل عام كتابا حتى استوفى دراسة تاريخ مصر الى سنوات سبع بعد ثورة يوليـو ١٩٥٢ ، وكان يصدر كل حلقة من هذه الكتب في ميعاد ذكرى شقيقه « امين الرافعي » التي تحل في ديسمبر ، تقديرا واحياءا لرجل عظيم مات في شرخ الشباب وفـي أبـان المعركة الوطنية ، والحق ان اسم ال « الرافعي الفاروقي » كان علما على تاريخ طويل قديم من العلم والفضل في مجـال الثقافة والقضاء ، ثم كانت دره الاربع في العصر الحديث ممثلة في (عبدالحميد الرافعي ، مصطفى صادق الرافعي، امين الرافعي ، عبدالرحمن الرافعي) . هذا البيت مـن طرابلس الشام ، أبرز هؤلاء الاعلام ومن قبل اباء لهم كانوا مثلا عاليـا في العدل والقضاء ، ثـم كان هؤلاء الاربعـة مثلا غير مكرر في البطولـة والسماحـة ، وفي الابـاء والكرامة ، هذا الطابع الذي اتسمت به الشخصية العربية الاسلامية الانوفة عن ان تحني راسها ، او تستسلم للظلم، او تقف موقف المهانـة .

والحديث عن مواقف أمين الرافعي مع سعد زغلول، ومعارضته في الرأي في عنف واصرار ثم دفاعه عنه بعد نفيه ، ثم العودة الى مخاصمته فيما يراه الحق ، واحتمال كل عنف وقسوة واضطهاد ليكشف عن اصالة عجيبـة ، وايمان يفوق الوصف في هذا الرجل السمح النحيل ، اما عبدالرحمن الرافعي فقد كان المحامي الذي ترك قضايـا الناس لقضية كبرى ، هي قضية مصر ، والذي عـاش عمرا طويلا في صـف المعارضـة فـي البرلمان المصري (١٩٢٤ ــ ١٩٥٢) صامدا في ايمانه وموقفه ومفاهيمه ، مفاهيم الحزب الوطني الذي انشأه مصطفى كامل وتفتحت عيناه عليه مؤمنا ومواليا وجاريا معه ، ومصاحبا لخليفة مصطفى : الرجل الذي اطلق عليه «قديس الوطنية» محمد فريد ، ومن خلال ذلك الحب الصادق للرجلين ، انشأ عبدالرحمن الرافعي عمله الكبير في مجلداته الستة عشر عن الحركة الوطنية منذ اوائل القرن التاسع عشـر مارا بعصر محمد علي واسماعيل والثورة العرابية والاحتـلال البريطاني وثورة ١٩١٩ والحياة السياسية بعدها الـى ثـورة ١٩٥٢ .

ومهما قيل في تقييم هذا العمل ووصفه بأنه أشنبه باليوميات الصحفية ، وانه خلا ــ الا القليل من التحليل الفلسفي للتاريخ ــ مهما قيل في ذلـك فانه عمل ضخم اعطى الباحثين ثروة من الاحداث والمواقف والنصوص التي امكن ان تكون قريبة الى يد كل مثقف ، ويمكن القول بأن الباحثين الذين اشتغلوا بالدراسات التاريخية الوطنية المصرية ــ جميعا بلا استثناء ــ سواء من كتب منهم مقالات صحفية وهي تعد بالالوف ، او اصـدر دراسات موسعة انما استفادوا من موسوعة الرافعي ، ولعل أبرز ما تتسم به هذه الدراسة ــ اذا ما قيل انها متحيزة لان صاحبهـا من رجال الحزب الوطني الذي شارك في الحركة الوطنية وكانت له في الاغلب وجهة نظر حزبه ، اذا ما قيل هـذا قلنا ان وجهة نظر الحزب الوطني كانت اكثر وجهات نظر الاحزاب وطنية ، وابعدها عن التحيز للاستعمار أو القصر وانها اسلم الخطوط واقربها الى الايمان بالعمل الوطنـي وان اربابها بعدوا عن الحكم وظلوا بالرغم من توسع النفوذ الحزبي لاحزاب ما بعد الحرب العالمية الاولى يحتفظـون بطابعهم ومفاهيمهم ــ الا قليلا ــ وكان عبدالرحمن الرافعي بذلك من اسلم الباحثين واكثرهم تجردا وقدرة على عرض القضايا والاحداث، ولعل ابرز ما يتمثل فيه نزعته التاريخية تلك القدرة التي اوتيها للكشف عن اخطاء اسماعيل وفؤاد في ظل حكم اسرتهما ، والكشف عن جوانب من حيـاة زعماء مصر لم تكن من اليسير ان يكشـف عنها بعـض الموالين للاحزاب السياسية التي ولت الحكم . واذا كان العقاد قد كتب مؤلفه الضخم عن سعد زغلول زعيم الوفد، وكتب هيكل مذكراته السياسيـة بوصفـه ممثلا لحزب

الاحرار الدستوريين ، فان موسوعة الرافعي تتسم بطابع اكثر حيادا من موقف الكاتبين بالنسبة لحزبيهما ، ذلك ان الحزب الوطني كان اكثر الاحزاب سلامة في موقفه ، وابعدها عن الاتهام بالطلة ايا كانت هذه الصلة بالاستعمار.

ومن هنا كان ذلك الاعجاب والحب الذي قرب بيني وبين عبد الرحمن الرافعي ،فقد قدمت القاهرة عام ١٩٤٦ من الريف ، وبدأت عملي في مجال الادب والصحافة ، وتطلعت الى « تصحيح المفاهيم » في مجال السياسة والوطنية وهي القضية الاولى والكبرى في ذلك الوقت فعكفت ادرس الحركة الوطنية في مصر على ضوء الصراع الذي كان قائما اذ ذاك وملت ميلا اكيدا الى اتجاه الحزب الوطني ، ونأيت عن صراع حزب الوفد والاحرار وما تفرع من احزاب نبعت كلها من «الوفد» الذي تقدم عام ١٩١٨ للدفاع عن القضية المصرية وحصل على توكيل « الامة » .

وعندما اصدرت كتابي « اخرجوا من بلادنا » وفي أعماقه ثورة على الاستعمار والنفوذ الاجنبي والاحتلال والقصر والاحزاب ، كنت قد انتفعت بآرائه وكتاباته عن سعد زغلول ، وكان ذلك متصلا بكتابات الاستاذ فتحي رضوان في هذا المجال ، هنالك كان لا بد ان اهدي اليه مؤلفي ، وأترقب رأيه ، وقد تفضل رحمه الله فارسل الي خطابا ما زلت احتفظ به ، كان ابرز ما فيه بعد الثناء على كتابي المستمد من اثاره ، هو القول باني اوجه التاريخ لوجهة الوطنية واتخذها سلاحا للثورة وتأجيج العواطف والمشاعر وان المؤرخ يجب ان يكون محايدا .

هنالك دارت بيني وبينه مناقشة في هذا الامر ، قلت فيها ان اية قيمة لنصوص التاريخ اذا لم تكن عجينة طيعة لتوجيه العمل الوطني وتدفعه الى مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكانت أيام ١٩٤٦ تحمل في أطوائها كل مقدمات ثورة ١٩٥٢ التي فجرت هذه الطاقة من بعد .

وكان كتابي يحمل صورة من مواجهة عمر مكرم للحاكم العثماني ، الى جوار حملة مصطفى كامل ومحمد فريد على الاحتلال الانجليزي الى تخاذل سعد زغلول ، ومتابعته للنفوذ البريطاني ، وما انشق عن مدرسته التي تكونت ١٩١٨ من احزاب تصارعت خلال تلك الحقبة وتمزقت وشغلت بالحكم عن القضية الكبرى وتحولت الحركة الوطنية من خلالها الى عملية ممارسة سياسية ، ذلك كان المعنى الذي استبطنه كتابي « اخرجوا من بلادنا » الذي لم يرض عنه استاذنا عبد الرحمن الرافعي . ولما تابعت هذا الكتاب بآخر عن الاحزاب السياسية ، وبين لاظوغلي وقصر الدوبارة ، وغيرها كان يلقاني في مكتبه مشفقا ، يحاول ان يقول لي كلمة ما ، ولكنه يجريها في عبارة رقيقة حين يقول : انني احس انك ناقم على النظام البرلماني والدستور والعصر كله ، عصر الملكية الدستورية وكان ذلك هو الحق ، ولكن الاستاذ الرافعي الذي هاجم سعد وهاجم الاستعمار البريطاني وهاجم اسماعيل وفؤاد، كان يعيش في اطار النظام الملكي البرلماني الحزبي ، وكان عضوا في مجلس النواب فالشيوخ خلال مدة ما بعد ثورة ١٩١٩ مشاركا في العمل السياسي . ولقد كنت اود ان اتابع استاذنا الرافعي في طريق دراسة التاريخ الوطني لولا ان توسعت افاقي في دراسة تاريخ الاسلام والعرب والحضارة وجريت في افاق عريضة . اما استاذنا فقد عاش في قضية الحركة الوطنية حياته كلها ، ووقف نفسه عليها ، واستطاع بحق ان يكون رائد البحث فيها .

ولقد التقيت بالاستاذ الرافعي طويلا ، وأحببته ، وجلست معه طويلا في مكتبه ، مكتب المحامي امام محكمة النقض ، الحافل بالمجلدات الضخمة من المؤلفات القانونية والتاريخية ، ولقد كان رحمه الله سمحا ، مشرق الوجه، بشوشا ، مليئا بالحياء ، كثير الاطراق ، والصمت .ولكنه يحمل في اعماقه اصرارا على ارائه،وايمانا بها لا يتزعزع.

وكان على قدر كبير من المروءة فقد قصدته مرة في ان يضمنني لدى بنك مصر في قرض ، فلم يكن يسمع بالامر حتى غادر مكتبه معي مهرولا الى البنك ، راضيا ، وتلك هي المرة الوحيدة التي طلبته في غير مطلب الفكر ، والادب ، والتاريخ . ولقد دعاني مرة السيد وجيه اباظة، وكان مديرا لشركة كبرى من شركات النشر والاعلان ودفع الي موسوعة الاستاذ الرافعي ، طالبا مني ان اعد كل كتاب منها للنشر مختصرا في سلسلة كان على وشك اصدارها باسم « كتاب النيل » ودعاني ان ابدأ العمل فورا ، فسارعت بتلخيص كتابيه «تاريخ الحركة القومية» ثم استدعى الامر ان أسافر الى الاسكندرية لالقاه ،متحدثا معه ، في شأن امضاء العقد الذي يجيز للشركة اصدارها، غير ان الاستاذ الرافعي الذي فرح بلقاء تلميذ من تلاميذه وهو يقوم بعمل يتصل بموسوعته ، أصر على « نظام معين» ولم أفلح في اقناعه بالتنازل عن رأيه ، فقد كان يخشى ان تقضي هذه الكتيبات المختصرة على الموسوعة الكبرى ، وان كان قد رضي عن ان اقوم بتلخيصها مطمئنا الى ان عملي سيكون كما لو قام هو به . ووقف المشروع ..

ولقد عشت حياتي الادبية من بعد أعد الرافعي واحدا من الابرار الذين يملأون نفسي واعتز باتصالي بهم ، حتى في الايام الاخيرة قبل وفاته كلما مررت بداره في الدقي .

ولقد اصطحبت به ذات يوم ، وانا أركب السياره الحافلة من أمام دارنا في طريق الهرم ، وهو عائد من رحلة باكرة الى الاحراش والحدائق ، يجدد يومه ، فكان لرفقتنا تلك الفترة حتى اوصلته داره صدى حلو في نفسه ، فقد تحدثنا حديث الحب والود ، وكان على عادته مشرقا باسم الطلعة ، فكها ، لصوته رنة عجيبة ، اذا اراد ان يصور نفوره من شيء او اعتراضه عليه ، كنت اداعبه واقول له ، انت الذي عارض سعد زغلول يوم كان لا احد يستطيع ان يعارضه في مجلس النواب حتى قال لك كلمته

الخالدة : هل عندكم تجريدة ؟ (وكان الحديث عن السودان وموقف الانجليز منه) . ولقد حدثني طويلا عن تفصيلات متعددة من حياته ، عام ١٩٥٨ وكان قد بلغ السبعين وهو المولود في ٨ فبراير ١٨٨٩ .

قال : دعاني محمد فريد ان اشتغل بالصحافة محررا باللواء ، وقبلت دعوته ، وكان هو الذي شجعني على الكتابة والترجمة. غير اني لم ألبث ان عدت الى «المحاماة» وبقيت اكتب في الصحافة دون ان احترفها .

وهو يعزو الى المحاماة فضلا ، ويرى نفسه في مجال كتابه التاريخ الوطني محاميا يدافع عن قضية كبرى . ولم يلبث عبدالرحمن الرافعي في خلال حديثه ان قال ما سبق ان رددت به عليه عام ١٩٤٦ قال : لقد كانت امنيتي الاولى بكتابة التاريخ بعث الشعور الوطني في نفوس الناس .

وعنده ان الانتاج الفكري يكون في الكهولة اقوى منه في الشباب ودليله انه بدأ كتابة التاريخ القومي عام ١٩٢٩ وعمره ٤٠ عاما .

وقد سجلت في مذكراتي (عام ١٩٥٦) موقفي منه وموقفه من التاريخ قلت : « كنت لا أعجب لشيء ـ في العهد الماضي الذي انتهى عام ١٩٥٢ ـ لكثرة ما تفشى النفاق في الصحافة والادب وكتابة التاريخ ، ان يقف عبد الرحمن الرافعي على قدميه ، وان يكتب تاريخ مصر في حرية ، دون ان يبالي بغضب الاقوياء او ينافق زعماء السياسة . ولكن يزول العجب عندما نعلم ان الرافعي قد رضي ان يعيش محاميا ، وانه لم يكن يطمع ان يكون عضوا في شركة او وزيرا في وزارة ، او رجلا من الحاشية . كان قد أعد نفسه ليكتب تاريخ مصر في حرية دون ان يخاف شيئا ، او يجعل لعامل من العوامل أثره في الحيلولة بينه وبين ان يقول الحق .

وليس يستطيع أي مؤرخ ان ينسى ان عبد الرحمن الرافعي كتب تاريخ فؤاد في ظل حكم اسرته، كما كتب تاريخ اسماعيل في أيام ابنه فؤاد وكشف عن الاخطاء التي وقع فيها ، وصور العوامل التي كانت من اسباب فقدان مصر استقلالها . وقد جرى بيني وبين الاستاذ الرافعي محاورة في شأن تجريد التاريخ وتوجيه التاريخ ، وكان من رأيي ان التاريخ عجينة طيعة وان علينا ان نستفيد منها في التربية وبناء المثقفين . ولعل الفارق بيني وبينه في ذلك انه (مؤرخ) وانا (مفكر) ..

هذا ما كتبته منذ عشر سنوات ، والرافعي حي ، ولعل مفهومي للتاريخ قد تغير أو تطور ولكني اذا كان لي ان اضيف شيئا فانما هو ان الاستاذ الرافعي يرحمه الله قد وقف في المراحل الاخيرة من تاريخ الحركة الوطنية (في خلال سنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠) موقفا فيه بعض المجاملة لقوم ، او بعض الخصومة لآخرين في ظل مفهومه الشخصي ، وانه قد تجاهل بعض الحركات الشابة التي برزت في خلال تلك الفترة كمصر الفتاة وحزب الفلاح والانصار وحزب العمل وغيرها ولم يقومها تقويما كافيا .

عيناك

عيناك عيناك يا لي كم أحبهما
سوداء في كل هدب فيض اشراق
يكاد فيض سناها حين يلفحني
يشدني بسماوات وآفاق
تكلمت والشفاه الحمر مطبقة
على حكايات أحباب وعشاق
دعي الكلام ففي عينيك قافلة
من الحروف سراها بين أعراقي
عيناك تزرع افكارا بذاكرتي
وتمطر الصحو دفاقا بآماقي

الكويت — محمد الفايز

ولعل ابرز ما يتسم به عبد الرحمن الرافعي هو انه عاش في محيط الحركة القومية المصرية ووهبه عمره كله، ولم يسجل هذا العمل الذي وهبه كل فكره وعمره بغير ثلاثة مؤلفات : حقوق الشعب ، نقابات التعاون الزراعية ، الجمعيات الوطنية .

وللرافعي مذكرات مطبوعة تحدث فيها عن حياته من (١٨٨٩ ـ الى ١٩٥١) وفيها يرسم صورة نفسه بقلمه على هذا النحو :

« اول ما اعترف به انني شديد الحياء ، لازمني هذا النقص منذ صباي ولم يفارقني في ادوار حياتي ، وأنا لا املك المرونة الكافية التي يقتضيها الانسجام مع المجتمع ، انا مهذب مع الناس ، ولكني اعترف بأني لست مرنا كما ينبغي ، وان لي عيبا اخر هو العناد ، على ان العناد لم يبلغ بي مبلغ التنطع والسخف ، على اني اعاند فيما اعتقد فيه اعتقادا راسخا بعد دراسة عميقة واني حسن الظن بالناس اكثر مما يجب ، ومن عيوبي اني احسن الظن بالحوادث ، واني متفائل اكثر مما ينبغي وكثيرا ما تأتي النتائج على غير ما اتوقع ، ومع ذلك لا اتعلم ولا اغير من نظري الى الناس والحوادث . »

والحق ان الرافعي رحمه الله قد صور جانبا واحدا من حياته ، اما الجوانب الاخرى وهي حافلة بالايجابية والسماحة والقوة والدأب على العمل اكثر من ثلاثين عاما لاخراج ما لا يقل عن عشرة الاف صفحة من تاريخ مصر مع المراجعة والبحث وتحقيق النصوص ، هذه الجوانب ان كان قد اغفلها الرافعي فانها حقيقة واقعة . وهو بعد علم من اعلام الفكر العربي المعاصر بنى في صرحه ركنا خالدا .

القاهرة — انور الجندي

أن يعضك كلب ، وانت موظف وشاب وعلى عاتقك مسؤوليات ، فتستريح في مستشفى تكون المداواة فيه لوجه الله ، امر جميل ، وان تجد بالمناسبة ممرضة حسناء أمر أجمل وأحب !. انه لأمر يدفع بالمرء الى القفز ، الى الرقص ، يدعو الى السير على أفنان الشجر .

هذا ما كان يفكر به سليم مغتبطا ، وهو يجلس في فراشه ، يغمز بعينيه ويقلب بشفتيه الغليظتين ، محييا روح الكلب الشرس النبيل ومقدرا للنعمة المفاجئة التي لا تحصل الا لذوي الحظوظ الوردية ، وفي اوقات معينة محدودة من هذا الزمان المضغوط بالكبت والضائع بالتنفيس.

النعاس يشده الى النوم مرة بعد مرة ، وهو ابدا يتمرد ، يريد ان يلفت النظر ويثير الاهتمام ! علها تدخل لترى السبب في عدم نوم الشاب الاسمر الضخم ! وينظر في ساعته ، لقد جاوزت منتصف الليل! يشعل لفافة ويفكر ، تمتد يده ، يريد قرع الجرس ثم يتراجع ... من الخير ان ينتظر ، فلتكن هي البادئة، واستسلم يتخيل ويتخيل ، يرجو ويرجو ! وسمع همسات في الرواق ووقع اقدام خفيفة ، فأصلح جلسته واتخذ سيماء مفكر ... في أوصاله اضطراب وفي دمائه غليان ، ليس باضطراب براءة ولا غليان فتى مراهق طيب ! انما هو الخوف من الا يكون في الحسبان .. هذا محال !.. أمثالها لا يقاومن امثاله ، وان قاومن لا يصمدن .

وابتسم نصف واثق ... ابتسامتها التي غاضت ، ارتعاش اجفانها ، اطراقة راسها ، حيرتها أ ليست وهما بلا حقيقة ، ولا نتيجة بلا سبب . في الصباح ... حديثها كان في البدء بسيطا :

– وكيف عضك ؟

– من !؟

– من !؟ الكلب ...

– ظننتك تعنين ... الاخر .

– الاخر !؟..

– أحد الذين يسيرون على الارصفة ، ويقطعون عرض الشوارع في نقاط محددة .

– أفيلسوف انت ام حاقد ؟

– كلاهما معا .

– فقط !؟.

وتعلق العيون بالشفاه ، بالثنايا ، ويكون فراغ ! يختفي كل شيء ، الا عصفور صفير أحمر يتابع رحلته فوق البحار ، وجلا من عاصفة تزمجر في البعيد ... وتلمس الايدي غير الاشياء ، ويكون مع رؤاه ووحشته.

حفيف ثوب عند بابه ! ييبس بتربص ، لقد خذل ، كل ما فيه يرتجف واسنانه تصطك ... هذا

هنا

بقلم فيليب عبدالحق

يحدث كلما اشتم رائحة ، كلما كان توقع ...

في الرواق ، تعود الاقدام هبات نسيم في يوم دافيء ، وشوشات ، وسكون طويل ... يخشوشن لسانه، وشفتاه تكون كورقة دلب خريفية ، ماذا !؟ يجب ان تأتي !.. لكنه يخافها ! وبان يريد سحق اسنانه ! انها بداية مأساة ان أتت ! فلتأت ، تبا للمآسي ... خمسة وعشرون عاما ، كل معادن الحياة ، أغصان السنديانة تقطع لتفحم ، قوادم النسر تشبك باسلاك النحاس ، الريح الصرصر تملك الاجواء ! مئتان وخمس ليرات !.. الشباب والعلم والحب ، أمور غير الزواج !.. ربيع ولا زهرة اقحوان ، صيف ولا كرمة، خريف ولا معاصر ، شتاء ولا قطرة ماء !..

فلتأت ، ان قلبه يغلي ... حبيبتي أنت وان لم تصدقي الحياة اثنان ، والكون لا يحتاج الى اكثر ... ان أتيت فالليل ابيض ، والنهار نور لا ينطفيء .

ويسهم ويسهم ... السماء فضية، وزمهرير ينثر نتف ثلج راقصة كأحلام ابن ثمان . منزل على كتف بلدة ، كلب يئن في العراء وباب موارب ، راس ملفوف بشال ، وشفاه ملتهبة، عيون فيها الف سؤال ، الف حب الف صلاة ، الف دمعة خوف ... حبيبتي ، حبيبتي ! وتمتد يداه . لا. لا ... ينتفض ، يضرب راسه مطبقا فكيه ، ضاغطا عينيه ، لا ، لا ! ينقطع تنفسه ، ويجمد كتمثال ما توصلت لخلقه عبقرية نحات ... ويلهث ، يتقلب في الفراش مكتوما حاجبا كل خارج عن بصيرته ، هاربا من ذاته ، لكنه ما يفتأ يتقلب ويتقلب ، ويصر السرير وتمتلىء الغرفة بصوت ! برجاء ، وهمهمات ولعنات !..

وينفتح الباب ، لتندفع ممرضة فتاة .

– ما بك!؟ أنت تتألم ...

وتمسك بذراعه ، فتتطاول همهماته كبكاء شيخ أدرد .

– أصمت ... اصمت ما بك !؟

وتجاهد ، فتأخذ كفه ، ثقيلة صلبة ، تفركها ، وتمسح على جبهته، ثم تنزلق يدها الى عينيه وانفه ، وتلامس أناملها شفتيه ، فتتمهل تداعبها . وترفع رأسها منتصبة مشرئبة ، مبرقة العينين ... وعلى جانب ثغرها تنسكب من نسمة صبح قطرة ندى ، وتحنو عليه بنظرة ، تتملاه ... كان يوليها ظهره مرتعشا.

تجلس على جانب السرير بهدوء ، وتنساب يدها الى عنقه ، الى صدره، تعبث ... في احشائها تمزق وفي

قصة

الصاحب الوحيد

سائليني عن اشتعالي وصمتي | واغترابي ووحشتي باغترابك
أي قلب تلظت النار فيه | مثل قلبي وظل رهن شبابك
صابر حائر معنى مدمى | واجف عاثر بدنيا سرابك
ما تقولين ؟ فيم صمت الليالي | يخرس الكون فيم لسع حرابك
أترى غرب الزمان هوانا | أم ترى جرت فالزمان هوى بك
عذبيني فكم أحب عذابي | واصلبيني اما مررت ببابك
أنا أحنى عليك من رعشة الظل | وأدنى اليك من أهدابك
وأنا الصاحب الوحيد اذا ما | عثر الدرب مرة بصحابك
لا أقول احترقت هذا رمادي | ذرذريه على عصي رغابك

موسى صرداوي

اوصالها خدر . ووشوشت بانفعال مجنون :

ــ حبيبي ... ما بك يا حبيبي !؟

وانحنت عليه بوله وعطف أمومي ، ورفعت رأسه بين يديها ، فانتظم تنفسه وبدا عليه ما يبدو على انسان تحرر من كابوس ! وينظر اليها بعمق وخشوع ودهشة ، ويأخذ يديها يسكب عليهما كل حنينه واشواق قلبه ويتمتم :

ــ أهذه انت !؟ منذ متى انت هنا يا حبيبتي ؟ زمان مضى وأنا اشتاقك ... تزوجيني يا حبيبتي، تزوجيني .

وتحاول التخلص ، حيرى مرتبكة، تعصف بها المفاجأة ، بلا طائل ، كان يلثم يديها متعبدا ، مرددا :

ــ انت حبي . انت حبي . تزوجيني ...

وتتساءل باستنكار ودلال :

ــ أنا حبك !؟

ــ **أنت تعرفين ، لا تعذبيني .**

وترفع صوتها :

ــ **وبعد !..**

ــ تزوجيني ... اسمعي لنداء قلبك ...

ــ نداء قلبي !؟.

ــ نعم . قلبك المحب الطيب الرائع ، لا تخدعي نفسك ، لا تخسري حبك .

ــ أأنت واثق ؟..

ــ حبيبتي . ايامنا تمضي ، اليوم أنت وفي كل حين انت ... كم مساء وصباح عبر ، والشوق يحدوني اليك ،وكم من لحظات مأخوذة عشتها معك .

وتقول برعشة مكتئبة :

ــ أحقا ... هكذا تحبني !؟..

ــ واكثر ...

ــ لكنني ، لا أعرفك ... لا ...

ــ ما بيننا من معرفة يكفي .

فتشرد : وتتزوجني !؟ تريدني ، زوجة !؟

ــ هذا رجائي .

ويأخذ رأسها ، وكل ما فيه يضحك ، يلتمع ، واذ تمسك بيديه وتنصب عيناها في عينيه يجذبها اليه ويغمرهابكل ما يعتمل في أعماقه ويوشوش :

ــ حبيبتي ... انت معي منذ البداية ، منذ البداية ...

ويمعن في ضمها ، فتحيطه بذراعيها وتستسلم لدفعة عاطفية بعيدة المدى عميقة الفور ، وتهمس :

ــ سأسعدك يا حبيبي بمقدار حبك ، منذ اللحظة يا حبيبي لن يطمح ناظري الا اليك ، وفي قلبي وخاطري لن يكون الاك ! امنية الثمرة يا حبيبي ، ليست اكثر من ان تحلو في العين وتبارك بالذائقة .

ــ هناء ... هناء ! انت مباركة في قلبي ، مقدسة في جوارحي منذ القدم ، ولن يكون في قلبي سواك يا حبيبتي ...

وانتفضت ملسوعة ، تقطر دما ، مشرسة تتمزق ، وتصفعه بكل ما آتاها الفليان من قوة ، وتحشرج بصياح مكبوت :

ــ تخدعني ؟ تخدعني ايها الوغد المجرم ، ليت امك ما ولدتك ، تخدعني ...

وتنشج منتحبة ، فيحاول الامساك بها :

ــ هناء !.. حبيبتي !..

ــ وتقولها ايضا ؟.. ايضا !

ــ ماذا بك يا حبيبتي !؟

وينبثق الذهول من عينيه :

ــ ماذا بك يا حبيبتي !؟

وتتمالك ، متأملة مستغربة لهجة الصدق في تساؤله ، لكنها وقد ملكها خوف في أعماقها صاحت :

ــ أنا . أنا لست هناء ، اسمي ليس هناء ، أنا جورجيت ... جورجيت هل تسمعني ؟ جورجيت.

ــ هناء !.. أنا قلت ... هناء!؟.

ويبتسم ابتسامة سعيدة بلهاء .

طرابلس — **فيليب عبدالحق**



أبو القاسم الشابي

ابو القاسم الشابي شاعر الوطنية

بقلم مقبل العيسى

* * *

للتعبير عن المعاني والمشاعر الانسانية في الفنون الادبية تأثير في النفس ... والشعر من اقوى الفنون الادبية تأثيرا ، واجملها تعبيرا .. لان الشعر لا يخاطب عقل القارىء بقدر ما يخاطب عاطفته .. فاذا كان محاكاة للطبيعة اثار في النفس الاحساس بالفن والجمال وان كان وجدانيا يصور المشاعر والعواطف الجميلة حرك في النفس كوامن الشجن .. وان كان وطنيا الهب في نفس القارىء الشعور الوطني ، والاعتزاز بأمجاد الامة .. لذلك كانت الصلة التي تربط بين اي قارىء يتذوق الشعر ، وبين أي شاعر اصيل رابطة قوية عميقة الجذور .

ولقد غنى ابو القاسم الشابي شعرا رائعا في حياته فأعجبت به بعد وفاته .. ولا أحسب اني اعجبت بشاعر في مطلع حياتي الادبية بقدر ما أعجبت بهذا الشاعر العظيم .. على الرغم من البعد الذي كان يفصل بين البلد الذي اعيش فيه ، وبين موطن هذا الشاعر . فلا ازال اذكر اني كنت اجتهد في البحث عن الكتب ، والمجلات الادبية التي كانت تصدر في بعض الاقطار العربية لعلي اجد فيها اثرا شعريا لهذا الشاعر ، بعد ان قرأت لاول مرة قصيدته المشهورة «النبي المجهول» في احدى المجلات الادبية .. وكان ذلك ابان الحرب العالمية الثانية .

ولو لم تكن شاعرية ابي القاسم الشابي اصيلة وشعره رائعا يستأثر بعواطف القارىء لبقي شعره في حدود البلد الذي يعيش فيه.. ولما اصبح – بحق – رافدا عذبا يمد بحر الادب العربي الحديث بأجمل التجارب الشعرية المعبرة عن القيم والمعاني الانسانية النبيلة والصور والاخيلة الشعرية الجميلة .. فالشابي لم يكن كأي شاعر عادي يغنى بأشعاره للناس فتختفي حلاوة اغانيه بعد ان تنطلق من بين شفتيه او تنشر في الصحف .. بل ان اشعاره خالدة مشرقة دائما لا تموت .. لانها من آلام آلهة الشعر ومعانيها واطيافها واخيلتها مستمدة من موطن السحر .. ودنيا العبقرية .. فلو لم يكن ابو القاسم الشابي شاعرا فذا ملهما لتحطمت قيثارته فوق رفاته .. ولكن شعره كما كانت روحه – رحمه الله – اقوى من الموت .. بقي خالدا تقرؤه الاجيال الحاضرة .. وستقرؤه الاجيال القادمة وتتأثر بـه ..

ولست في هذه الكلمة بصدد ابراز سمو شاعريته ، وتقييم آثاره الادبية ، ومقارنتها بالاثار الادبية لعباقرة الشعر العربي الذين اغنوا بانتاجهم الحياة الادبية في العالم العربي .. ولكن في كلمتي هـذه سأتناول جانبا مشرقا عن الجوانب المشرقة في شعره الخالد .. الا وهو وطنية الشاعر ، واشعاره الوطنية .. والحق الذي لا مراء فيه ان ابا القاسم الشابي قد خلف شعرا وطنيا تزهو به هامة الادب العربي الحديث .. ويحق لابناء تونس الخضراء ان يفخروا ويفاخروا بـه .. وان يطلقوا عليه شاعر الحرية .

كما اني لن اتعرض لدراسة وتقييم تجاربه الشعرية المعروفة لدى القراء في العالم العربي وتحليل شخصيته من خلال هذه التجارب .. او الحكم عليه بانه كان منتميا لهذا المذهب الادبي او ذاك .. والقول بأن أعماله الادبية ملتزمة هادفة ام أنها تنبع من قوقعة الذات واجواء الرومانسية الحالمة . واذا كان محترفو النقد الادبي الحديث قد اصبحوا يحملون بعنف على انتاج الشعراء ذوي الميول الرومانسية وعبادة الذات التي ظهرت في انتاج كثير من الشعراء بعد الحرب العالمية الاولى والثانية ، ومناداتهم بضرورة الالتزام في الادب .. فانني احسب ان من عظمة هذا الشاعر انه قد خلق تجارب شعرية يصح اعتبارها من الناحية الموضوعية ، ومن ناحية معطياتها الفنية وتأثيرها ملتزمة الى ابعد حدود الالتزام .. فشعره الوطني ملتزم بلا شك ، لانه يصور آمال وآلام شعب بأكمله ، بل شعوب عربية بأسرها ، ويترجم احلام هذه الشعوب في الخلاص من قيود عدوها الاستعمار الذي كان يتحكم في مصيرها .

كما ان اغلب شعره هادف اجتماعيا .. لان فيه ثورة على الظلم الاجتماعي ، والتقاليد البالية والتعصب الاعمى وفيه ايضا دعوة الى الخير والحب والسلام .. وهذا لعمري اساس نظرية الالتزام ، وان ضيقت مدلوله بعض الاراء السياسية المتطرفة . فالذي يقرأ انتاجه الشعري في ديوانه المطبوع «مختارات من اغاني الحياة» الذي قام بنشره الاستاذ ابو القاسم محمد كرو .. يجد ان التجارب الشعرية لهذا الشاعر الملهم تتميز بجو او نزعة رومانسية حزينة .. وبافكار صوفية حالمة .. وبان هذا الشاعر كان يعيش في بيئة نفسية مكللة بالكآبة .. الا ان هذه التجارب – مع ذلك – تحتوي على معاني ومشاعر انسانية نبيلة وصور فنية .. وهذه الصور وتلك المعاني تؤثر بلا شك في نفس القارىء لانها تدعوه الى اعتناق الخير والمحبة .. والتغني بالجمال والمثل الانسانية السامية .

فالشابي مثلا في قصيدته «صلوات في هيكل الحب» وهي من التجارب الشعرية التي تتجلى فيها النزعة الرومانسية يرسم للقارىء لوحة فنية ساحرة يتجسد فيها كل شيء جميل ، وتتمثل فيها آفاق رائعة للجمال المعنوي المقدس .. وهذه الصور او الاخيلة تؤثر في نفس القارىء وتربي فيه محبة الجمال وتقديس صانعه .. واذا كان لا بد من مثال على ذلك فلنسمعه يقول :

عذبة انت كالطفولة ، كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد
يا لها من طهارة تبعث التقديس ، في مهجة الشقي العنيد
اي شيء تراك .. ؟ هل انت فينيس تهادت بين الورى من جديد
ام ملاك الفردوس قد جاء الى الارض يحيي روح السلام العهيد

فأي شيء احب الى النفس البشرية من السلام والطفولة ، والقمر والورد واللحن والصباح الجديد ؟ وأي دعوة لتقديس الخالق ، واعتناق عقيدة التوحيد اجمل من قوله في هذه القصيدة ..

يا ابنة النور انني انا وحدي من رأى فيك روعة المعبود !
فدعيني اعيش في ظلك العذب وفي قرب حسنك المعبود !
عيشة للجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود !

نعم ان الشابي بهذه المعاني والالفاظ الموسيقية العذبة يحمل

* القيت في مهرجان الشابي في مدينة تونس .

القارىء على ارجوحة مقدسة ليعيش معه لحظات في عالم الجمال .. وهذا في رأيي منتهى الالتزام .. والامثلة على ذلك كثيرة في ديوانه المطبوع « من اغاني الحياة » ..

وكما حمل الشابي شبابته وغنى للحياة .. فقد تغنى بوطنه واسمعنا من حبه له ، وعن اخلاصه لشعبه شعرا وطنيا رائعا يعبر عن اشواق روحه ولوعة قلبه الى تحرر هذا الشعب وانطلاقه وتقدمه .. شعرا قويا يهز مشاعر القارىء ويثير سخطه على كل قيد اجتماعي متزمت يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه ، وعلى كل تحكم واستعباد يحد من حريته .. فاذا ذكر شعراء الحرية في العالم المكافحين في سبيل حرية وطنهم ، فلا أعتقد ان أبا القاسم الشابي يقل عنهم وطنية واعمالا ادبية تتغنى بالحرية .. وتوحي بالعزة القومية .. فهو لم ينس ان يتغنى بحب بلاده رغم ظروف الشقاء التي كانت تكتنف حياته .. فلا أروع ولا أجمل من مناجاته « لتونس الخضراء » بقوله :

انا يا تونس الجميلة في لج   الهوى قد سبحت اي سباحه
شرعتي حبك العميق ، واني   قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي .. وان اريقت دمائي   فدماء العشاق دوما مباحه

هنا نراه يعبر عن اقدس العواطف .. وهي محبته لوطنه .. واذا كان قد تالم من واقع شعبه في مطلع هذه القصيدة وشكى من سكونه على اخماد كل صوت يدعو للاصلاح شأن كل شاعر مرهف الاحساس ، فما كان ذلك شجبا او عتبا بقدر ما كان حبا لشعبه .. ودعوة له للتخلص من قيود ماضيه وجمود حاضره .. واملا في ان يسترد هذا الشعب يوما حريته المسلوبة لانه يقول في ختام هذه القصيدة :

ان ذا عصر ظلمة غير اني   من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد قومي ولكن   سترد الحياة يوما وشاحه

والشابي ما كان محبا لوطنه فحسب .. بل كان صاحب رسالة — كما اعتقد — في ايقاظ الشعور الوطني لدى شعبه ، ومحاربة الظلم الاجتماعي والتعسف السياسي .. واخلاصه وتحمسه لاداء هذه الرسالة كان على حساب اعصابه .. فالذي يقرأ اعماله الادبية يجد ان هذا الشاعر العظيم لم تتعذب روحه مما كان يعانيه من شقاء وألم وحرمان فحسب .. وانما كانت تتعذب ايضا لاستسلام شعبه — أثناء حياته — للعادات البالية والسكوت على الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي.. ونتيجة لهذا الشعور نراه يشكو متألما من واقع شعبه داعيا اياه بصدق واخلاص الى التخلص من الافكار القديمة .. ونبذ الخلافات ، وانكار الامتيازات التي كانت مستحكمة حينذاك ودليلي على انه صاحب رسالة قصيدته « النبي المجهول » التي تعتبر في رأيي من اروع الاعمال الادبية الهادفة ومن اجمل التجارب الشعرية الفريدة في نوعها في ديوان الشعر العربي الحديث .. فهو في هذه القصيدة يقول :

ايها الشعب ليتني كنت حطابا   فاهوي على الجذوع بفاسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت   تهد الرموس رمسا برمس
ليتني كنت كالرياح فاطوي   كل ما يخنق الزهور بنحس
ليت لي قوة الاعاصير يا شعبي   فالقي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة العواصف ان ضجت   فأدعوك للحياة بنبس

فمعطيات هذه القصيدة الخالدة توحي بأن هذا الشاعر الملهم كان صاحب رسالة وطنية تعذب من اجلها كما تعذب الناصري من جحود وآثام شعبه .. كما انها تصور معاناة شعرية قاسية مر بها الشاعر في حياته فأوحت اليه بأن يلجأ — بعد يأسه من اصلاح شعبه — الى الغابات ليتلو على ما يضم الغاب من طيور وزهور وصباح وديجور اناشيده ، ويبثها اشواق روحه ، ويشكو اليها اشجان قلبه ، وصعوبة تحقق احلامه وأمانيه الوطنية .. ويدفن نفسه — كما يقول — في صميم الغابات متأملا يسأل الكون في خشوع وهمس عن سر الوجود ، وعن صميم الحياة .. فالعزلة الغابية هذه كانت بمثابة خلوة تأملية للتفكير في مشكلات شعب بأكمله ، وربما شعوب عربية بأسرها .. وحيث كان هذا الشاعر مخلصا في احاسيسه الوطنية ، ومشاعره تجاه شعبه..

فقد فجرت هذه التجربة براكين الثورة في اعماقه والهمته قصيدته الخالدة « ارادة الحياة .. » الشهيرة المعروفة .. ففي هذه القصيدة نجد ان التجربة الشعرية قد ولدت بعد التأمل العميق .. وصدق الرؤيا فيها واضحة في تصور الحقيقة .. وهي ايمان الشاعر بقدرة الشعوب على استرجاع حقوقها .. والشاعر في هذه القصيدة قد بلغ قمة الابداع الفني ، وقوة الاداء .. كما تجلت مقدرته الشعرية الفائقة في ابداع قصيدة نشيد الجبيار (او هكذا غنى برو متيوس) .

ويقيني ان الشاعر في نشيده الاخير لم يكن يتحدث عن نفسه بقدر ما كان يتحدث عن مستقبل شعبه .. ودليلي على ذلك انه برغم مرضه العضال .. كان يصرخ في سمع الوجود قائلا :

سأعيش رغم الداء والاعداء   كالنسر فوق القمة الشماء
ارنو الى الشمس المضيئة هازئا   بالسحب والامطار والانواء

فالشاعر الملهم — في اعتقادي — مهما تحدث عن نفسه فلا بد ان يكون في عقله الباطن احساس خفي بما يشعر به افراد مجتمعه من الم وامل .. بل الم وامل الانسانية بأسرها .. ومن اجل ذلك كانت اعمال الشعراء الملهمين الادبية خالدة ، لانها تعبر عن اماني واحلام المجتمع الذي يعيشون فيه .. ثم ان وطنية الشابي لم تكن قاصرة على دعوة بني قومه الى التحرر من اغلال العادات الاجتماعية البالية .. وعلى ايقاظ الوعي الوطني بينهم ، بل ان له شعرا وطنيا يدعو الى الثورة والتمرد على الاستعمار الاجنبي البغيض واعوانه حينما كان مسيطرا على بلاده..ومن أقوى واوضح هذه القصائد، الثورية قوله يخاطب الشعب:

خلقت طليقا كطيف النسيم   وحرا كنور الضحى في سماه
تغرد كالطير اين اندفعت   وتشدو بما شاء وحي الاله
كذا صاغك الله يا ابن الوجود   والقتك في الكون هذي الحياه
فما لك ترضى بذل القيود   وتحني لمن كبلوك .. الجباه ؟
الا انهض وسر في سبيل الحياة   فمن نام لم تنتظره .. الحياه

ومن اشعاره الوطنية التي كان يكافح بها الاستعمار الاجنبي والاستبداد السياسي قوله مخاطبا « طغاة العالم » وهو يعني بطبيعة الحال الطغاة المستبدين بمقدرات شعبه :

الا ايها الظالم المستبد   حبيب الفناء عدو الحياه
سخرت بأناة شعب ضعيف   وكفك مخضوبة من دماه
وعشت تدنس سحر الوجود   وتبذر شوك الاسى في ثراه

ثم يوجه الانذار اليهم قائلا :

تأمل .. هنالك اني حصدت   رؤوس الورى ، وزهور الامل
ورويت بالدم قلب التراب   واشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل سيل الدماء   ويأكلك العاصف .. المشتعل

ولكن ما حدث ..؟؟ حدث ما كان يتوقعه .. ففي صباح يوم جميل، وبعد ان غيب الثرى جثمان هذا الشاعر العظيم تحقق ما تنبأ به فقد جرف السيل الثوري جيوش الاستعمار عن بلده « تونس الخضراء » وحطم شعبه قيود الظلم والاستبداد الاجنبي .. واصبح ابناء تونس يرددون مع روحه وارواح شهداء الحرية التي تطل عليهم من شاطىء الابدية:

اسكتي يا جراح   واهدأي يا شجون
مات عهد النواح   وزمان .. الجنون
واطل .. الصباح   من وراء القرون
فاسكتي .. يا جراح   واهدئي .. يا شجون

وبعد .. ان خير ما اختتم به هذه الكلمة هو ما قاله الاستاذ ابو القاسم محمد كرو الذي كان له الفضل باتاحة الفرصة لابناء الاقطار العربية في قراءة الاعمال الادبية لهذا الشاعر العظيم بأن اقول : انني باسم جميع الادباء العرب اهيب بشقيق الشاعر ان ينشر جميع الآثار الادبية لاخيه لانه بذلك يحقق امنية طالما تمناها ادباء العالم العربي .. وتطلع اليها قراء اللغة العربية .

مقبل العيسى
جدة — السعودية

معاني الشيب عند الشاعر المدني

بقلم عبد الرحمن علي

* * *

الشعر الصادق مخاض تجربة .. واحساس انساني بالتوقع والمفاجأة .. وموقف شامل تجاه الحياة يحوطها بعناية النظرة النافذة . هذا الشمول مسؤول عن توكيدات القيمة الحياتية والبصر بظواهرها ومساتيرها .. لذلك سنعجب دائما لمواقف شعرائنا في الجاهلية من امور الحياة بدورتها الزمانية والمكانية ، فتلك احساسات نابعة أصلا من تجارب وجودية خلقتها السليقة بانعكاساتها الفاعلة امام عظمة الحياة او الموت ..

وقد طلع علينا بعض الشعراء من ذوي الاجادة في مر العصور بالوان من هذه المواقف الصادقة ، فلم يكن موضوع الشيب الا نغمة خاصة عزف عليها الشعراء تخفيفا من عبء ثقيل أخذ بأقطار النفوس ، فشاءت ان تعبر عن هواجسها بعبارة ساخطة حينا ونادبة ساخرة حينا آخر .. وهي بعد خطرات فيها الحكمة السديدة والمعنى الشيق والفجيعة على ما فات .. وليس في وسعي ان آتي على ذكر المأثورات الادبية فيما يخص معاني الشيب فذلك لا يقع تحت حصر (١) . ويكفي ان نعلم ان الشيب ونعوته لم يكن قاصرا على ذوي القرائح الشعرية بل تعداه الى اهل اللغة .. فهذا – من قبيل المثال – الامام اللغوي الثعالبي افرد فصلا في ظهور الشيب وعمومه في كتابه « فقه اللغة » ، كما صنع اللغوي ثابت بن أبي ثابت فصلا نفيسا في الشيب ونعوته وشعث الرأس في كتابه « خلق الانسان » فضلا عن اهتمامات شعرائنا المعاصرين ممن اكتووا بنار الحياة واشتعلت رؤوسهم شيبا بعد ان ذاقوا حلوها ومرها .. ومنهم شاعرنا ، موضوع الكلام ، قيصر سليم الخوري الملقب بالشاعر المدني ..

والشاعر المدني هو الشقيق الاصغر للشاعر الاشهر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) .. وقد ولد سنة ١٨٩١ في قرية البربارة وارتحل مع شقيقه الى البرازيل في اول آب سنة ١٩١٣ ، وفي دار هجرته احترف التجارة على أنواعها وهو اليوم قد ولج عتبة الرابعة والسبعين من عمره المديد .. ولم يكن المدني في يوم من الايام محترفا للشعر او هاويا منقطعا له .. ولكنه يساهم فيه مساهمة المقل ، ولذلك جاء شعره صورة لانسان صحيح النفس ، عامر القلب بالمحبة لوطنه الاول ، يصدر عن شعور صادق لا اعتساف فيه ولا مغالاة .. وهو كأي مهاجر آخر عجنته الايام وطحنته التجارب وتقلبت عليه الشؤون غير انه يجابه الحياة ببسالة الرجل الذي لا يحني القامة .. وهو متفائل في صراعه مع الحياة على الرغم مما يبدو في شعره من قتامة ومرارة وسخط ، فهو لا يسمح لعوادي الدهر أن تنال من عزيمته ومن ذلك قوله في هذين البيتين :

تضاحكن اذ داعيتهن وقلن لي تحمل هوان الشيب غير كئيب
فقلت مشيبي لم يزل في شبابه ولا أرعوي حتى يشيب مشيبي

فهو هنا صابر فوق حدود الصبر ، يأتي بالمعنى اللطيف الذي يتحدى به من أردن له تحمل هوان الشيب .. ويؤكد لهن انه لا يرعوي حتى يشيب مشيبه وهذه عندي مفارقة جميلة ساخرة من غير صراخ ودعوة حميمة لكسر حدود الوحشة الزمانية ..

ويذكر مقدم الديوان (٢) الشاعر القروي عن اخيه المدني ، انها تفتحت في سن مبكرة اثبت فيها آنذاك مقدرته على التشطير ويسوق القروي مثالين يؤكد فيهما براعته الشعرية ونحن نورد هنا مثالا منهما بسبب علاقته بموضوع الشيب ، فقد روى انهما كانا في يوم عطلة وطلب من اخيه المدني شيئا من التسلية ، فما كان منه الا ان اخذ بتذكيره بالبيتين اللذين حفظهما عن والده في صغره لاجل الغناء :

وقائلة ما بال دمعك ابيضا فقلت لها يا هند هذا الذي بقي
ألم تعلمي ان البكا طال عهده فشابت دموعي مثلما شاب مفرقي

ثم يقول القروي مخاطبا شقيقه : قلت ما رايك في ان نلهو بعض الوقت بتشطيرها ؟ قال : هلم ، وجاء بورقة شطرها بيني وبينه واكب كل منا بقلمه فوق ورقته . وبعد ردح قصير قلت هل انتهيت ؟ قال نعم . قلت اسمعني . قال لا اتقدم عليك . قلت اريدك ان تتقدم . فقرأ تشطيره ثم نظر الي . فرأى يدي تحت الطاولة تمزقان ورقتي كل ممزق . قال ما هذا ؟ قلت هذا هذا لا سواه . فوالله لو قام المتنبي من قبره وسمع تشطيرك لتهيب منافستك فيه ! او لكان قصاراه ان يقول قولك حرفا بحرف ! وهذا هو تشطير قيصر :

وقائلة ما بال دمعك ابيضا فقلت لان الحب في داخلي نقي
فقالت الا تدري سوى الدمع في الهوى فقلت لها يا هند هذا الذي بقي
ألم تعلمي ان البكا طال عهده وقد ينقضي في لحظة حين نلتقي
ولدت ودمعي والهوى ولدا معي فشابت دموعي مثلما شاب مفرقي

قلت ان المدني يقف صارما متحديا افاعيل الدهر ولكنه كانسان سوي النفس لا تتساوق حياته تساوقا باسما لا غصة فيه ولا اكتواء ، وانما هو يكلف احيانا بذكر سوءات الزمان فلا غنية في الجهاد بعد ان داهمته الخطوب وتركته مثخنا بالجراح حتى ليبدو الشاعر وكأن

الدهر اخذ نصفه للهم وابقى للموت أبخس نصف :

اكل الناس لحم شاء تفذت	**بطعامي وما ظفرت بظلف**
وسقاني كأس المشيب دهاقا	**من تسقى شبابه تحت سقفي**
أخذ الدهر خير نصفي للهم	**وابقى للموت أبخس نصف**

ولا تشغل الشاعر همومه الذاتية برغم حدتها عن همومه الاكثر اتساعا وعمقا ، هموم الوطن البعيد ، فهو يحسب نفسه ميتا ـ عافاه الله ـ لانه ترك بلاده مهاجرا مغتربا.. وهذا غاية الصدق والوفاء ، فليس لدى المهاجر من هم أمض وأحرق من هم الفراق ونداء الرحم .. عند هذا المعنى يطوف الشاعر في قصيدة «العرافة» في حوار ينم عن تمزق دفين ليس الشيب فيه الا علامة على فهم الحقيقة ، حقيقة الوطن الذي شيب الشاعر واضناه :

ألا تنظرين بياض مشيبي	**الا تلمسين غضون اهابي**
حسابك يا أخت غير مصيب	**وكنت اظنك أم الحساب**
أجابت سل النفس عد السنين	**فما بعد ربك كالنفس هاد**

وعدت لنفسي مستفهما	**كخابط ليل اظل طريقه**
فاوحت الي بشيء فما	**أتمته حتى فهمت الحقيقه**
وصحت صدقت فاني دفين	**وقدمت يوم تركت بلادي**

وفي غمرة الحنين الى الوطن لا يطوي المدني عن النزوع الى اكتشاف البديل عن هذا الحنين الجارف .. وأي شيء اقرب الى النفس من بسمات الطفولة التي تحيل ظلمة الحياة الى نور والتي هي امتداد لمحبة الارض الاولى .. من هنا يكون مشيب الشاعر جميلا وانفتاحا على الدنيا وتفريجا عن الهموم .. ولولا ذلك لخلت الدنيا من الاماني والاحلام كما تجسدها براءة الطفولة وترعاها مشاعر الابوة الحانية :

ما بال قلبي كلما أعطيتهم	**أضعاف ما طلبوا اظل بخيلا**
وعدي لهم أرب فان قصرت يدي	**عن مطلب فرحوا به تعليلا**
قبلاتهم عند السؤال عطية	**منهم تعيد السائل المسؤولا**
يا طالما أدنيت خدي مغمضا	**عيني افتح للسؤال سبيلا**
قد فرجوا عني الهموم وزحزحوا	**عن منكبي صخرا أصم ثقيلا**
لولا هم ما كان ضعفي قوة	**والعسر يسرا والمشيب جميلا**

ولا يخفى ان الشيب من الناحية البيولوجية دالة على الشيخوخة والقرب من مرحلة العجز في أغلب الاحيان، ولا يخفى ايضا ما لتأثيره من الناحية السيكولوجية في تصرفات الشخص ، حيث لا يلبث ان يحن الى ماضي أيامه يستحضرها ويتمثلها بحنينه الحار الى صدر الشباب باندفاعاته وانطلاقاته التي لا تحد ، ولكن هيهات لعبق الشباب ان يعود بعد أن ذوى عوده . عند هذا المعنى وقف كثيرون من الشعراء ، يسفحون آهاتهم وحسراتهم ، ولما لم يجدوا متسربا الى عودة تلك الايام الزاهية انزلوا حجابا ضعيفا بينهم وبين تلك اللذاذات الاولى ، متعللين بصحوة المشيب بعد غفلة الشباب ، ورجاحة العقل بعد نزوات الصبابة كما يتمثل في هذه الابيات (المدنية) الهادفة :

ردي الشباب تعد الي صبابتي	**فالشيب ما بيني وبينك حائل**
والعقل من ولد المشيب فاذهبي	**عقلي فما التمس الصبابة عاقل**
لا تعذلوا اهل الهوى لضلالهم	**ان الضلالة ما يقول العاذل**
عبق الشباب هو الهوى فاذا مضى	**عهد الشباب فكل زهر ذابل**
غفل الشباب عن المنون فان بدا	**فجر المشيب فقل تنبه غافل**
ما الشيب الا اسطر فكأنما	**بين المنية والشباب تراسل**

فأنت ترى ان المعنى قريب ومتداول ولكنه لا يخلو من تجربة نفسية وعقلية متمثلة في أسطر الشيب بكل ما فيها من حكمة وسداد رأي ، لذلك لا نعجب اذا ما كره شاعرنا حياة الصبا وتمنى ان لا تعود،وبيان ذلك ان الصبا الخالي من النعيم لا طائل من ورائه ، وانما الشيب افضل على هذا الوجه ، فقد يضنى الانسان ويشقى في شبابه ولا يبلغ واحة السعادة وربما أتحفه الشيب وهيأ له من اسباب النعم ما كان يرجوه في ايام شبابه ولكن لحكمة بالغة أمتحن الانسان امتحانا في حياته المتعاودة قد لا يكشف عن خباياها سوى الموت :

كرهت الحياة فلو عاد لي	**صباي تمنيت لو لم يعد**
ومن لم يذق في صباه النعيم	**رأى الشيب افضل مما فقد**
ورب شقي بعهد الشباب	**لدن بلغ الشيب منه سعد**
فان الحياة لسر خفي	**وقد يكشف الموت عنه وقد**

ومن اطرف المعاني ما جاء في ابياته الثلاثة في وصف الشعرة البيضاء ، فهي ضميمة انسانية تنبىء عن قدرة على الابتكار والتخييل وخلق التشبيهات المستملحة الجديدة :

بيضاء لاحت كالهلال بمفرقي	**تبني الحياة عن الزوال المحدق**
طرقت وقد ساد السواد بلمتي	**كاللص في غير الدجى لم يطرق**
فحسبتها والقلب مزقه الجوى	**خيطا لرتق فؤادي المتمزق**

وبعد هذا الطواف حول معاني الشيب عند الشاعر المدني يلزمني ان اشير الى ان الناقد ليس مجبرا دائما بأن يتحرى الجزالة والتعبير الفني المحكم والديباجة العالية ، فربما قد يواجه شعرا قليل الحظ من هذه الامور ولكنه متخم بالتجربة الانسانية والصدق الشعوري، لانه نابع من اعماق النفس ، خالص من العلائق الكاذبة.. وعندها يرتهن النظر النقدي بوجهة البساطة والتعبير العفوي النابض بالحياة .. والشاعر المدني هو اقرب الناس الى هذه المنابع الانسانية المتدفقة ، وحسبه انه لا يبخل في كشف مساتير النفس ، فيظهرها مجلوة بحقيقتها التاريخية المعذبة وتجربتها الانسانية النبيلة وذلك منتهى الاخلاص لفن القول ...

البصرة ـ العراق **عبدالرحمن علي**

---

(١) يقتضيني الانصاف ان اذكر ان للصديق محمود عبدالوهاب دراسة مفصلة عن موضوع الشيب والشعر جمع فيها مادة وفيرة وشواهد كثيرة .. ومن اسف ان هذه الدراسة الطريفة لم تطبع بعد . (٢) «ديوان الشاعر المدني» طبع دمشق ١٩٦٦ ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي.



عبدالحميد الانشاصي

قـوة الارادة

بقلم عبدالحميد الانشاصي

« مهداة الى الاديب الكبير الاستاذ البير أديب بمناسبة مضي ست وعشرين سنة من جهاده العظيم في رفع مشعل « الاديب » بارادة جبارة وصبر وتضحية ، وفي تقديم طلائع من الكتاب والشعراء لرفع مستوى الادب والفـن فـي البلاد العربية » .

* * *

الارادة قوة كامنة في النفس غذاؤها الطموح والاخلاق المتينة . ان الارادة لا تتكون في وقت وجيز بل لا بد أن تنقضي عليها عدة سنين حتى تنمو وتتكامل . تبدأ في ذهن صاحبها همسا يشجعه على المضي في سبيل يؤدي الى هدفه ، ثم يعلو ذلك الهمس فيتحول الى صوت داخلي يحثه ثم يرغمه على المضي في ذلك السبيل حتى يحقق آماله فيستريح . وأي صوت يحدو المرء على العمل ؟ انه صوت الطموح . يطمح الانسان الى اتقان عمل من الاعمال او الى النبوغ في فن او علم . فلكي يحقق آماله لا بد ان يستخدم قوة ارادته مستعينا في الوقت نفسه بأشياء أخرى تمكنه من بلوغ اربه . وحينما يثق الانسان بنفسه نستطيع ان نقول ان قوة ارادته تكاملت وأصبحت صالحة للاستخدام .

ان الطموح يشجع صاحبه على المضي في سبيله نحو هدفه ، ولكن هل الطموح وحده يكفي لتكوين قوة الارادة؟ ليس الطموح الا صوتا مشجعا . انه في حاجة الى عامل آخر حتى تتألف قوة الارادة وتنفذ تنفيذا يضمن لصاحبها النجاح . وما ذلك العامل الاخر الا الاخلاق المتينة . الطموح يشجع والاخلاق المتينة تنفذ . واعني بالاخلاق المتينة الصبر والصدق : الصبر على ملاقاة الشدائد واحتمال المشقات والمثابرة على العمل ، والصدق في تلبية الصوت الداخلي الذي يحث المرء على المضي في سبيله .

حينما اراد طارق بن زياد ان يغزو اسبانيا أحرق السفن التي عبر هو وجنوده بها البحر وخطب فيهم خطبته الشهيرة قائلا : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر » . لقد دعا جنوده الى الصدق والصبر وهما أجمل الاخلاق الحميدة المتينة : الصبر على موقفهم من الاسبان والصدق في العمل بما همس به طموحهم في اذهانهم . نعم ، لقد كان طارق بن زياد طموحا ، وكانت أخلاقه متينة ، وكانت ارادته قوية . اراد ان يحول جنوده الى اشخاص يشبهونه طموحا ومتانة أخلاق وقوة ارادة لكي ينفذ ارادته ويبلغ أربه . وقد نجح في مسعاه نجاحا تاما ، فطاب نفسا واستراح . كان طارق رجلا مجهولا يعمل عند موسى بن نصير ، ولكن مما لا شك فيه انه كان طموحا يسعى الى القيادة اقتداء بسيده وارضاء لعبقريته . وكان ينتظر فرصة لاظهار سيده والذين يجهلون قدره على ما أوتي من موهبة في القيادة ، حتى وكل اليه موسى بن نصير امر فتح اسبانيا ، وحينئذ بذل جهده واستخدم قوة ارادته في الوصول الى هدفه ، فتم له ما اراد .

وحينما اراد الشاعر الرقيق ابو حسن الانباري ان يخلد الوزير أبا طاهر الذي صلبه عضد الدولة بقصيدة يرثيه بها ، استخدم قوة ارادته وحصر أفكاره كلها في طريقة يرفع بها قدر الوزير المصلوب الى منزلة يحسده عليها من صلبه ويتأسف على فقده عندها من سمع القصيدة من الناس . وقد وفق الشاعر فيما اراد توفيقا عظيما ، فخلد نفسه وخلد اسم صاحبه المصلوب في تلك القصيدة الرائعة التي مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات   لحق تلك احدى المعجزات

ولو لم يستخدم الشاعر قوة ارادته لما بلغ ما بلغه من الرقي الذهني والعبقرية النادرة .

وقد أراد هنيبال ان يتسلق هو وجنوده جبال الالب ليفتح « روما » . خاطر بحياته وبحياة جنوده في أماكن مرتفعة وممرات ضيقة وعرة حتى اذا اشرف على روما قال لهم مشجعا : « هناك تقع روما . بعد معركة او معركتين تقع العاصمة في أيدينا » . وبعد مشقات جمة ذهب ضحيتها نحو نصف جنوده تمكن هنيبال بجيشه المنهوك القوى المتوثب الارادة ان يتغلب على الجيش الروماني لا في موقعة واحدة فحسب بل في موقعتين .

وقد اراد كريستوفر كلومبس ان يكتشف شيئا

جديدا يسجل اسمه في سجل الخالدين من المكتشفين ، فراح يتجول بين ابناء قومه ويشرح لهم فكرته الجديدة ، ولكنهم قابلوه بالتهكم والسخر وتثبيط العزيمة . غير انه لم يصب بمرض اليأس بل لجأ الى الصبر وظل يبحث عن أنصار لفكرته على ضوء طموحه حتى وجد ضالته . وأخيرا أقلع كريستوفر كلومبس هو ورجاله في ذلك المحيط المظلم المخيف . وفي طريقه تذمر اعوانه قائلين : « نحن نقطع بحارا لم يجرؤ احد من قبل على دخولها . هل تريدنا ان نظل مقلعين حتى نهلك ؟ » ولكن ذلك المكتشف العظيم لم يتراجع خطوة واحدة عن خطته ، ولم يخامره شك قط في ايمانه بفكرته ، وانبأهم في تجلد وثبات انه سوف يكافىء اول رجل منهم يقع نظره على قطعة ارض مكافأة قيمة . واخيرا وصل الى بعض الجزر الواقعة على ساحل اميركا . وهناك اجتمع رجاله من حوله وقبلوا يديه سائلين الصفح والغفران مؤكدين له ثقتهم به . وهكذا اكتشفت أميركا بارادة رجل واحد أثار النفوس من حوله في سبيل تنفيذ خطته وحمل الناس على تصديق فكرته .

قضى ليوناردو دافنشي الرسام الايطالي الشهير خمس سنوات في رسم أغمض ابتسامة جاد بها وجه في صور العالم . وقضى جوتيه الشاعر الالماني الاكبر ثلاثين عاما في تأليف روايته التمثيلية الخالدة « فاوست » . وزهير بن ابي سلمى كان يقضي سنة كاملة في نظم قصيدة واحدة من قصائده الرائعة ، وابو الفرج الاصبهاني قضى خمسين سنة في تأليف كتابه الضخم « الاغاني » . وأمضى الشاعر الفارسي الفردوسي نحو عشرين سنة في نظم ملحمته الخالدة « الشاهنامة » .

من هنا نعلم كيف كان نوابغ الفنانين يتحملون مرارة الصبر سنين طوالا في سبيل تنفيذ قوى ارادتهم لبلوغ ما يطمحون الى بلوغه من ابتكار وشهرة .

وصاحب الارادة في صراع دائم بينه وبين نفسه . انه بين اثنين : بين الدنيا واطايبها وزخرفها ومباهجها ولذاتها ومسراتها وبين طموحه وآماله . فاما ان يعيش كما يعيش القانعون من الناس لا تتعدى مطالبه الطعام واللباس والزواج والاولاد ، واما ان يضحي بالكثير من الملذات في سبيل تحقيق فكرة له لا يستريح معها الا متى وضعها موضع التنفيذ . لا يمكن ان تصبح الارادة قوة الا اذا غذاها صاحبها بقوة من نفسه . ومتى وجه قوته الى الارادة لم يجد بدا من ان يحرم نفسه كثيرا من ملذات الحياة ونعيمها . وهنا يبدأ الصراع بينه وبين نفسه ـ حينما يشعر بحاجته الطبيعية الى أخذ نصيبه كاملا من نعيم الدنيا ، وحينما يشعر بضرورة اجابة ذلك الصوت الداخلي الذي يدعوه الى تحقيق آماله. يقع بين جاذبيتين: جاذبية الطبيعة وجاذبية ما وراء الطبيعة .

وهناك الى جانب هذا الصراع الباطني صراع آخر خارجي . صراع بين صاحب الارادة والمجتمع . كلما حاول صاحب الارادة ان يدنو من هدفه ويحقق آماله وقف الناس في سبيله وصدوه عن غرضه . فمنهم الحاسدون ومنهم المتهكمون ومنهم الكسالى ومنهم القانعون . وليس له الا ان يشق طريقه بينهم وحيدا لا نصير له سوى ثقته بنفسه وتشجيع طموحه . انه في صراع بينه وبين نفسه وفي صراع بينه وبين الناس . والصبر على حالة كهذه يقتضي ارادة جبارة وجهادا مرهقا وعنادا صلبا . وكل ذلك لا يتم الا بمتانة الاخلاق . صاحب الارادة ثائر والناس يبغضون الثورة . انه طموح والناس قانعون . انه شاذ والناس متشابهون .

قد تتحول الارادة في صاحبها من مجرى الى آخر . فكم من رجل اراد ان يكون محاميا فلما نال شهادة الحقوق شعر برغبة شديدة في ان يكون أديبا شهيرا . وكم من تاجر أصبح سياسيا أو عالما . وهذا يدل على ان صاحب تلك الارادة لم يتبع هواه في أول الامر بل ارغم نفسه ارغاما على ممارسة عمل من الاعمال او اضطر الى ممارسته ليكسب رزقه ويقيم أوده ، غير انه عجز عن الصبر على الصراع القائم بينه وبين نفسه فلم يجد بدا من ان يوجه ارادته الى الهدف الذي يعتقد انه لا يعيش سعيدا الا اذا وصل اليه .

فالشاعر الانجليزي كيتس قضى بضع سنين في الجامعة يدرس الطب ، ولكنه حول ارادته الى مجرى آخر فاذا به يستبدل بمعالجة الاجسام بالادوية معالجة النفوس بالشعر . وغوغول القصصي الروسي الكبير كان في أول أمره موظفا في دائرة من دوائر الحكومة . وكذلك هوثورن الكاتب الاميركي . ومن أصحاب الارادة من جمع بين ارادتين في وقت واحد كجوتيه مثلا فانه كان اديبا عظيما وموظفا كبيرا في آن واحد .

ومنهم من حول ارادته من مجراها الطبيعي الى مجرى آخر لا يلائمها . فالمتنبي كان يطمح الى ان يكون من أعظم الشعراء في عصره . وقد تم له ذلك ، الا انه وجد ان شعره لم يمكنه من التمتع بنعيم الدنيا كما يحب فطمح الى ان يكون اميرا فهو حينما مدح سيف الدولة بقصائده الرائعة لم يقصد بعقله الباطن الا ان يمدح نفسه ممثلا في سيف الدولة . وقد فشل في سعيه الى الامارة لان قوة ارادته الحقيقية لم تكن متجهة الا الى الشعر . أما الامارة فلم يوجه اليها الا فضلات من ارادته .

وابو العلاء المعري طمح ان يكون نابغة عصره في الشعر ، فما زال يسعى الى غرضه حتى نجح وذاع صيته في أنحاء البلاد العربية . الا أنه شعر بمثل ما شعر به المتنبي من قبله وهو حرمانه التمتع بنعيم الدنيا ، بل كان حرمانه اشد وأمر من حرمان المتنبي . ولما ايقن انه من المحال ان يأخذ نصيبه من سعادة الحياة بسبب عماه حول ارادته الى مجرى آخر وهو التسامي . فقد امعن في حرمان نفسه أطايب الدنيا ، فلم يتزوج ولم يأكل من

الاطعمة ما لذ وطاب ، واكتفى من الملابس بالخشن البسيط، وقضى على نفسه بالسجن المؤبد في منزله . وكان غرضه من ذلك ان ينظر اليه الناس نظرة تقديس واعجاب .

أقبل المتنبي على الدنيا متهالكا لكي يتسنم الامارة ، وانصرف المعري عن الدنيا نافرا لكي يحظى بالتقديس . كلاهما حول ارادته الى مجرى غير طبيعي فلم يصب نجاحا ، فان الناس فيما مضى وفي هذا العصر لا يذكرون المتنبي وأبا العلاء الا كشاعرين على الرغم من ان أحدهما بلغ درجة التقديس وتمكن الثاني من الاحتكاك بأمير ونيل رضاه . حتى ولو قدر للمتنبي ان يكون اميرا فان شعره متغلب على الامارة بلا ريب .

وكما توجد قوة الارادة في الفرد توجد كذلك في المجموع . الا ان المجموع لا يمكنه ان ينفذ ارادته ويحقق أمانيه بغير جهد الفرد ، بل ليس في استطاعته ان يكون فيه قوة من الارادة دون ان ينفخ فيه الفرد من روحه . ان الجمهور المتضايق في كل قطر من الاقطار هادىء صامت ينتظر صرخة يبعثها رجل من رجاله في حماسة وثقة . انه يشعر بمثل ما يشعر به الفرد من ضيق ويكاد يهم بمثل ما يهم به الفرد من تنفيذ الارادة ، غير انه جبان متهيب يتظاهر في بعض الاحيان بالقناعة ويصطنع الرضى .ولكن متى شذ عنه أحد أفراده ودعاه الى القيام بعمل لبى الجمهور دعوته وانقاد له انقيادا أعمى وأظهر سخطه وأعلن تذمره وخاطر بنفسه . وبذلك تتجلى قوة ارادته فتكتسح امامها كل شيء وتبلغ ما تسعى اليه . فالجمهور يستمد ارادته من الفرد كما تستمد الكائنات حرارتها من الشمس. أما الفرد فيستمد ارادته من نفسه .

قبل الثورة الفرنسية كان الجمهور الفرنسي يحتمل ما ينزل به من ألوان العذاب على مضض ، وكان في انتظار أفراد قليلين يعربون عما يجول في نفسه . كان في انتظار أبطال يضحون بنفوسهم في سبيل غيرهم . كان في انتظار من ينفذ ارادته ويقوده الى هدفه . وقد قدر للجمهور ان ينصت الى ذلك الصوت الثائر يبعثه روسو مناديا بانصاف الشعب واعلاء شأنه وبوضع حد لطغيان الاشراف في عصره ، وقدر لذلك الشعب ان يستمع الى صوت فولتير مبشرا بالتسامح والانسانية . وقدر له أيضا ان يستمع الى صوت ديدرو ناقدا النظم الاجتماعية والاقتصادية . اولئك ابطال قضوا حياتهم في تكوين ارادات من فولاذ وفي وضع تلك الارادات الجبارة موضع التنفيذ لا يبالون بما قاسوه من تشريد ومصادرة كتب في سبيل اغراضهم ومآربهم . وهكذا نجح أولئك النوابغ في تنفيذ ارادة الشعب وضم ارادتهم الى ارادته .

ومتى تكونت قوة الارادة في صاحبها ساقته الى غرضه كما تسوق قوة البخار القطار على السكة الحديدية . يشعر صاحب الارادة انه مسير لا مخير . ومعنى ذلك انه محال ان يرجع عن غرضه ويتخلى عن فكرته، فاما ان ينفذ ارادته ويحقق ما يريد او يهوي الى دركات الهلاك والاضمحلال. أما أولئك الذين يرتدون فليسوا بأصحاب ارادات وانما هم قوم حاولوا ان يكونوا في نفوسهم ارادات فلما عجزوا عن ذلك ارتدوا . أي ان ارتدادهم حصل بسبب عجزهم عن تكوين ارادتهم وليس بسبب عجزهم عن تحقيق أغراضهم.

كان ملتون الشاعر الانجليزي يطالع كثيرا ويكتب كثيرا ، وقد نصحه الاطباء بالكف عن المطالعة والكتابة لئلا يذهب بصره ، ولكنه لم يعمل بنصيحة الاطباء وظل يطالع ويكتب حتى كف بصره . ومع ذلك فقد استمر على ما هو فيه بلا تراجع ، فأملى قصيدته الخالدة « الفردوس المفقود » على بناته وأصدقائه .

وبيتهوفن الموسيقار الالماني العبقري أصابه الصمم في أواخر حياته . ولكن ذلك لم يحل دون مضيه في سلم العبقرية والشهرة ، اذ كان يعزف على البيانو الحانه العالمية وان لم يسمع منها شيئا .

وديدرو الكاتب الفرنسي الكبير ألف موسوعته العظيمة بعد مثابرة وجهد على الرغم من المقاومة التي قابله بها قلم المراقبة ، فقد صودر المجلدان الاولان من موسوعته، ولكنه استمر على اصدار أجزاء تلك الموسوعة . فتدخل قلم المراقبة مرة ثانية وسحب رخصة نشر الكتاب وحظر بيع سبعة مجلدات من الموسوعة كانت قد نشرت من قبل غير ان ديدرو لم ييأس اذ عاد فنشر العشرة مجلدات الباقية من كتابه بعد مضي سبع سنوات دون ان يكترث لاية مقاومة .

ومارسيل براوست القصصي الفرنسي العظيم ألف قصصه وهو مريض لا يخرج من بيته ، ودوستويفسكي القصصي الروسي النابغة ألف قصصه وهو يعاني آلام الفقر والمرض .

ومن أصحاب الارادة من ينفذ ارادته وحيدا دون الاعتماد على أحد كالفنانين على اختلاف انواعهم والفلاسفة والعلماء . ومنهم من لا يستغني عن الجمهور في تنفيذ ارادته كالساسة والقواد .

ان كتاب « العقد الاجتماعي » الذي تتمثل فيه ارادة روسو هو من أعظم الكتب السياسية في العالم سواء أكان السبب في اشتعال الثورة الفرنسية أو لم يكن . وكتاب « رأس المال » الذي تتمثل فيه ارادة كارل ماركس هو من أعظم الكتب الاقتصادية سواء أكان السبب في اندلاع لهيب الثورة الشيوعية في روسيا أو لم يكن . اي ان هذين الكتابين يخلدان دون اعتمادهما على تكاتف الجمهور في تنفيذ ما فيهما من آراء صائبة . أما قائد كالاسكندر أو يوليوس قيصر او نابليون فانه لا يستطيع ان ينفذ ارادته بغير الاعتماد على قوى عدد كبير من الجنود .

ولا شك ان اولئك الذين يعتمدون على انفسهم في تنفيذ ارادتهم هم الذين يصيبون خلودا حقيقيا ويتقدمون

بالانسانية خطوات واسعة . أما اولئك الذين يعتمدون على الجمهور في هذا الشأن فلا يقدمون الى الانسانية من خدمات الا القليل . ان كتابا كجمهورية افلاطون أو روايات شكسبير خير ألف مرة من فتوحات الاسكندر ونابليون .

ومن أصحاب الارادة من يسعى لمنفعته الخاصة ، ومنهم من يسعى لمنفعة المجموع . ان يوليوس قيصر ونابليون كان غرضهما من فتح الاقطار توسيع ملكهما والارتقاء الى درجة رفيعة من درجات الشهرة والعظمة . أما بطرس الاكبر ومصطفى كمال فقد كانا مصلحين كبيرين بذل كل منهما جهده في تشذيب عادات شعبه ورفع مستواه علميا وادبيا وخلقيا . ولا شك ان اصحاب الارادة الثانية يجمعون بين الفكر والعمل . ومعنى ذلك أنهم يضطلعون بحمل أثقل من الحمل الذي يضطلع به أصحاب الارادة الاولى . وبالاضافة الى ذلك فان في أعمالهم انسانية وفضلا لا ينكران .

والارادة نوعان : واقعية وخيالية . فالارادةالواقعية تتجلى في العلم والعمل ، والارادة الخيالية تتجلى فيالفن كالشعر والقصص والرسم والموسيقى . ان العلم والعمل يخدماننا خدمة مادية اذ يجلبان الينا الراحة البدنية في عدة امور . والفن يخدمنا خدمة نفسية اذ يجلب السعادة الى نفوسنا وينسينا همومنا وأحزاننا في بعض الاوقات .

ان المرء ليجد لذة ومتعة في قصيدة لعمر بن ابي ربيعة او في رسملروفائيل او فيقطعة موسيقية لشوبير . وانه ليجد سأما اذا قرأ كتاب « أصل الانواع » لداروين او « راس المال » لكارل ماركس . ومع ذلك فانتاج العلماء ضروري كانتاج الفنانين .

ان رجل الفن يكتب أو يرسم او ينحت ترفيها عن نفسه ، فيرفه عن نفوس الناس أيضا . ورجل العلم او العمل ينتج ما يريد فينتفع وينفع غيره أيضا .رجل الفن يوجه ارادته الى الخيال هاربا من الحقيقة المرة التي صدمت قلبه ، فيسعد في خياله ويعرف كيف يسعد غيره ممن يجدون سعادة في الخيال . ورجل العلم او العمل يلصق بالارض — ميدان عمله — فيستمد منها مادته وفائدته . والفن والعلم يتعاونان دائما في كل مكان وفي كل زمان . ان الالحان الموسيقية لا تسمع الا بادوات خاصة تعزف عليها ، والمناظر الروائية لا يمكن اظهارها على الشاشة الفضية الا بالاستعانة بآلات لازمة لهذا الغرض . وعلى الرغم من استخفافنا بالفن لخلوه من النفع المادي فانهليس في امكاننا الاستغناء عنه بل نضطر الى بذل بعض ما لدينا من الاموال في سبيل التمتع به .

اننا نجد قوة الارادة متجلية في كل شيء مما ينتجه الانسان . ان العمران الذي عم العالم يقوم على أساس من قوة الارادة . نجد قوة الارادة ممزوجة بقوة البخار التي تسير القطارات ، وبقوة البنزين التي تدفع السيارات وترتفع بالطائرات ، وبقوة الكهرباء السارية في الاسلاك .

ما الاهرام في مصر ؟ أليست هي ثمرة ارادة الشعب الفرعوني ؟ ما التحنيط ؟ أليس هو ثمرة ارادة العلماء المصريين في سالف العصور لتخليد أجساد اولئك الملوك صونا لهم من الفساد ؟ ما ديوان المتنبي ؟ أليس هو ارادة نفس عظيمة خالدة بكبريائها وخبرتها وحكمتها وعزتها وطموحها ؟ وما قبة الصخرة في القدس ؟ أليست هي تعبيرا عن ارادة الاتقياء في تجميل معبد الله ؟ ما جمهورية افلاطون ؟ أليست هي ارادة ثائرة على النظم الاجتماعية وداعية الى تغييرها ؟

في كل شيء يسر أو يدهش تكمن ارادة الانسان . قد أراد الانسان فيما مضى وهو يريد اليوم وسوف يريد غدا . ان الانسان يمتاز على الحيوان بارادته لانه فيارادته تتجلى أخلاقه ويتجلى طموحه وتفكيره . بارادته يرتقى وبها يشعر انه كائن حي يحس ويفكر ويسعد ويشقى . لقد كان الانسان الاول يفخر بقواه الجسدية في الصراع والاعتداء . أما الانسان المتمدن فهو يفخر بقوة ارادته .

ليس من السهل ان يدخر الانسان في نفسه قوة الارادة . انه في حاجة الى صبر طويل ومثابرة متواصلة. ينبغي لمن يسعى الى ادخار قوة الارادة ان يواجه الصعوبات ويكتسح العقبات ويعود نفسه تحمل المشقات وان يتجنب السهل الميسور .

ما أكثر الاذكياء في العالم ! ولكن ما أقل أصحاب الارادة ! كثيرون من الناس أوتوا حظا ضئيلا من الذكاء ولكنهم اكتسبوا حظا وافرا من الارادة فجاءوا بما عجز عنه الاذكياء الذين لا يملكون من قوة الارادة شيئا.ما قيمة الذكاء بلا ارادة ؟ انه شبيه بمال مذخور لا ينتفع به .

لولا قوة الارادة لما كان في العالم عباقرة ونوابغ . ان الارادة شجاعة تقلصت من الجسم وكمنت في النفس. ومتى عرف الانسان كيف يستعملها ابتكر وخلق وأفاد وأدهش . محال ان يبلغ الانسان غرضا من الاغراض بغير ارادة . كما تسير السيارة بقوة البنزين كذلك يسير الرجل الطموح في طريق التقدم بقوة الارادة . بالمثابرة يستطيع المرء ان يصل الى هدفه ويتمتع بالسعادة والهناء. لا شيء يقتل الارادة كاليأس .

مما أعجبت به من الحكايات الخرافية حكاية ضفدعتين وقعتا في اناء مليء بالقشدة فلم تتمكنا من الخروج منه . وقالت احداهما للاخرى : « لماذا تسبحين يا رفيقتي ؟ ان لم نغرق الان فلا بد أن نغرق فيما بعد ». واستسلمت الى اليأس حتى غرقت . ولكن الضفدعة الاخرى ما زالت مثابرة على السباحة حتى تحولت القشدة الى زبدة ، ثم ربضت على تلك الزبدة لتستريح من عنائها وتتمتع باطمئنانها . وفي هذه الخرافة درس لمن يسعى الى تكوين قوة الارادة في نفسه .

عمان — **عبدالحميد الانشاصي**

حديث الشاعر عن المعاناة

بقلم يوسف نوفل

* * *

النفس الانسانية تنطوي على كثير من الاسرار ، ونفس الفنان تغدو اكثر انغلاقا اذا ما غلفها الصمت وحينذاك يبدو التعرف عليها ضربا من المستحيل ، اما اذا افصحت ريشة ليوناردو دافنشي عن شيء يتمثل في الجوكاندا مثلا ، ومايكل انجلو في موسى ، ورودان في المفكر ، وفي المعبودة الدائمة فانه يصبح من الممكن التعرف على جزء كبير من نفسية كل منهم .

وحين ننتقل بالحديث الى مجال الشعر فاننا نضع يدنا باديء ذي بدء على هذا المبدأ ، وهو ان الشاعر كالطير لا يستسيغ الشدو في العاصفة ، اذ قد يتاح له بعد قليل او كثيرا ان يفرغ لقلمه ليقول شيئا ما قد يكون متواريا ينساب خلف السطور ، وقد يكون صريحا يجلو نفسه من أول وهلة .

هذا هو ما يسعفنا للتعرف على جوانب معينة من نفسية الشاعر ، لكن حديثه عن نفسه كشاعر ، وتصويره لمعاناته للكلمة ومحاولات خلقه لها ، وطريقة رسمه لعالمه بنماذجه وأحداثه ، ومدى ما يشعر به ازاء مولد القصيدة ، ازاء اللفظ ، وازاء الايقاع ، وازاء تمثل التجربة ، بل وازاء الجمهور ... كل هذا شيء يبدو في نظري ذا خطر كبير يرفعه درجة فوق الحديث من النوع السابق .

وخطر هذا النوع يرجع الى انه ، فوق كونه ترجمانا صادقا وأمينا ودقيقا وحيا لشخصية الشاعر ، فانه يقدم للتاريخ الادبي بطاقة شخصية لقائله ، ويقدم للتاريخ العام حكما صريحا لحياة وظروف وعالم الشاعر . واذا كنت على نية قصر الحديث على هذا النوع الا انه سوف يحدث ان اعرج على النوع الآخر لأغادره سريعا .

ونفس الشاعر تحيا وتتحرك خلف كيانه المادي وهي بدورها تريق ألوانها على كل لوحة يرسمها الشاعر ومن هنا نرى السحر في كيانة الشاعر لدى اسماعيل صبري ، وحيويته عند أبو ريشة ، وعصبيته وعمق عواطفه لدى ناجي ، وجهامته في العقاد ، وصفاء الروح عند نعيمة وعريضة ونازك ... الخ .

ومن الشعراء من يحفل شعره بالصور النفسية أكثر من الصور الخالية كتوماس هاردي ، وهنا يأتي دور القاريء الذي لا بد ان يوفق في الاهتداء الى مرمى الشاعر والا ظلمه وتجنى عليه ... يقول المرحوم العقاد « فنحن لفقرنا في الاحساس المنوع الفزير ، أو لتفريقنا بين الشعر والاحساس نقرأ القصيدة التي تشرح لنا الحالة او الحالات الكثيرة من عوارض النفس البشرية ثم لا نزال نترقب من الشاعر مغزاه ونتوهم النقص في غرضه » .

ومن الشعراء من يحلو له تصدير ديوانه بما يصور معاناته للكلمة، يتخذ من ذلك مدخلا الى نفس القاريء ، وهذان نموذجان صدر بهما ديوانان ، أولهما « رمال عطشى » للشاعر سليمان العيسى يقول :

انها حبات رمل عطشت فتحدى اليأس فيها الظمأ
انا في اعماق قومي صرخة تتشظى لا قصيد يقرأ
حسب لحن ينتهي في وتري انه في صدر غيري يبدأ

وثانيهما « قالت لي السمراء » لنزار قباني يصدره بقوله :

شعري انا قلبي ويظلمني من لا يرى قلبي على الورق . ويقول في اول قصيدة واسمها ورقة الى القاريء :

شراع أنا لا يطيق الوصول ضياع أنا لا يريد الهدى
حروفي جموع السنونو تمد على الصحو معطفها الاسودا
أنا الحرف أعصابه نبضة تمزقه قبل ان يولدا

صنعتك من أضلعي لا تكن جحودا لصنعي ولا ملحدا
عزفت ولم أطلب النجم بيتا ولا كان حلمي أن أخلدا
اذا قيل عني (أحس) كفاني ولا أطلب (الشاعر الجيدا)
شعرت (بشيء) فكونت (شيئا) بعفوية دون ان أقصدا
فيا قارئي يا رفيق الطريق أنا الشفتان وأنت الصدا
سألتك بالله كن ناعما اذا ما ضممت حروفي غدا
تذكر وأنت تمر عليها عذاب الحروف لكي توجدا
سأرتاح لم يك معنى وجودي فضولا ولا كان عمري سدى

وهنا ينصب الحديث على أبراز معاناة الخلق ، وهناك حديث يشيد بمعنى الكلمة وبقائها ، ويرتفع به وقد أبدع في تصويره كمال نشأت في قصيدته «انا وسيدتي» فيصور خيبة امل سيدة في عبد اشترته ليملأ قصرها غناء ولكنها تجده شاعرا يجابهها بقوله :

ولست الا شاعرا ..
يخونه الغناء ..
فمعذرة ..
الدمع قد يفسد من ليلتك المعطرة ..
وغضبت سيدتي وصفقت : خذوه ....

ونغمة الحزن التي تطبع دنيا الشاعر تشيع على السنة الكثيرين ، فالشاعر السابق يحدثنا عن الشعر والشاعر فيقول :

يا رب أشقيتني ... بالشعر .. بالاحساس ..

وفي قصيدته « وتعود الحياة » يقول :

أيها الشاعر الذي أنطق اللفظ حنانا ورقص الالحانا
الحياة الحياة تملأ جنبيك سموما وحرقة وهوانا

وتمضي نفس النغمة لدى ابي سلمى في قصيدته الافق المعطر :

كيف أخفي الهوى وشعري جناح كلما رف بالدموع تعثر .

ويختلف الشعراء في ربطهم عملية المعاناة بدوافعها .. فمنهم من يربط تجربة الكلمة بمعاناة الحب ، ومنهم من يجعلها وليدة التعذب والوحدة والسهر والقلق ، ومنهم من يتلقفها من أجنحة ربة الشعر ، ومنهم من يربطها بلهب المعركة وتدفق المشاعر الوطنية .

وسوف نلتقي بنماذج لكل ظاهرة ، لنخلص الى نتيجة تحدد ابراز هذه الظواهر وأكثرها شيوعا .

الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي يربط بين هجر حبيبته له وانهياره وبين استجدائه للكلمة وعدم استجابتها له ، فيقول في قصيدة « أغنية اكتوبر » من ديوانه لم «يبق الا الاعتراف » :

يمكن أن تهجرني حبيبتي ...
يمكن أن تفرقني الاحزان ...
يمكن ان ألقى بنفسي جثة ...
في أحد الاركان ...
أحاول الشعر فلا يجيبني ...
أصنع أحداثا بلا ألوان .

بينما نجد الياس أبو شبكة يحار ان ينسب الشعر لنفسه أم لحبيبته :

خلقتك في دنيا الرؤى أم خلقتني وقبلك جئت الكون أم جئته قبلي
وعني قلت الشعر أم عنك قلته ومن في الهوى يملى عليه ومن يملي؟

أما نزار قباني فينطلق من هذا الى الزهو البالغ مبلغ الغرور حيث يتحدث عن ذيوع شعره فيقول في قصيدة « معجبة » على لسانها ،

وحسبك انك في كل بيت كسلة ورد ... وغير هذا كثير لديه في ديوان قصائد في صفحات : ١٤ ، ٢٦ ، ١١٦ وغيرها .

أما شعر العذاب فهو اراحة لنفس كاتبه .. يقول الياس فرحات في رباعيته :

وقالوا تركت الشعر قلت تركته سوى نفثات تكشف الغم عن صدري

واكثر منه كيلاني سند في قصيدته « يا رياح الخريف » :

وأنا أغزل الكآبة شعرا هو شكوى مواجعي وجراحي
وبشعري أظل استر عريي ناسجا بالخيال ريش جناحي

وفي قصيدته « يا شعر » يقول :

يا موجة غسلت جراحات الفؤاد من الانين

ونجد نازك الملائكة توغل في السواد فتقول في قصيدتها «كبرياء» :

لو تكلمت كان في كل لفظ قبر حلم وفجر جرح مميت

وتبلغ هذه الظاهرةأوجها لدى بدر شاكر السياب في دواوينه كلها، ففي قصيدته «المعول الحجري» يصور ترقبه للموت ثم يقول :

سأعجز بعد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جال

ويقول في « القصيدة والعنقاء » :

جنازتي في الغرفة الجديدة ... تهتف بي أن أكتب القصيدة ...
وأكتب ما في دمي وأشطب ... حتى تلين الفكرة العنيدة ...

ويقول في قصيدته « الشاهدة » :

رب فتى مورد ...
يقرأ من شعري على الصحاب ...
يقرأ في كتابي قصيدة خضراء عن جيكور...

مر على قبري فقال : « قبرا وأين من هذا الرميم « شعر يدفق بالعواطف كهبة العواصف القواصف (؟) » .

ثم يقول في قصيدته « شاعر » :

كفن بالاوراق آهاته وارتد يرثيها بآياته
واستأثرت أبياته روحه فطاف يبكي حول أبياته
اندس تحت الترب جثمانه وكف قلب بين طياته !
خلف قلبا بين أشعاره يسمع من في الارض دقاته !

فهنا يقرن الكلمة بالموت كمبدأ او نهاية ، وهو هنا يختلف عن نزار في بيته السالف الذكر في أنه يخفف من غلواء اعتزازه بنفسه كشاعر فيكتفي بالاشارة الى خلود شعره ، دون التغني بمجد الشهرة والذيوع كما فعل نزار .

وقد يخفف السياب من حدة الحزن فيقول في قصيدته « امام باب الله » :

ومن ليالي مع النخيل والسراج والظنون ...
أتابع القوافي ...

ويربط بين الشعر وبين مرضه القاسي فيقول في سفر أيوب :

ويقطر الشعر ولا يفيض
لانني مريض

ثم يصل بنا الى قمة تحطمه ويضع لذلك عنوانا معبرا هو قصيدته « هرم المغني » :

بالامس كنت اذا كتبت قصيدة فرح الدم
فاغمغم ...
وأهيم ما بين الجداول والازاهر والنخيل
أشدو بها أترنم .
زاد لروحي منذ سقسقة الصباح الى الاصيل

ثم يقول :

هرم المغنى صدمته الداء فارتبك الغناء
بالامس كان اذا ترنم يمسك الليل الطروب
بنجومه المترنحات فلا تمر على الدروب
واليوم يهتف ألف آه لا يهز مع المساء
سعف النخيل ولا يرجع زورق العرس المحلى

ومع تصوير هذا العذاب المضني الذي يسبق ويصاحب ويتلو مولد الكلمة ، نجد ظاهرة أخرى مدهشة لدى كمال النجمي في قصيدته « أنا » يقول :

أنا طيف من طيوف الشعر في الدنيا سرى
ربة الشعر حبتني سرها دون الورى
وأرتني الكون شعرا كله فيما أرى

فهنا رجوع الى مبدأ الالهام وتمسك بخيالات آلهة الوحي وربات الشعر وشياطينه ، دون احتفال بعذاب ميلاد الكلمة ، ودون التفات لاعتصار الشاعر في الحروف والسطور .

ومن الشعراء من يربط بين الكلمة وبين تحرك الجماهير نحو متطلباتها وأمانيها ، هذا سليمان العيسى يقول في « يا موكب النور » :

هتفت بالشعر استسقيه قافيه حمراء فانفجرت في أضلعي الحمم
هتفت بالشعر فانهالت على شفتي خطا الضحايا ومات الشعر والكلم
هتفت بالشعر فازور الهوى حردا وناء تحت هزيم اللفظة القلم
وأطرق الوتر الهدار .. لا ظمأ الى النشيد بعينيه ولا نهم

ويجري في هذا المجال ما صدر به ديوانه وسبقت الاشارة اليه .

وحين يلمح في عيون الناس اتهامه بالجري مع الخيال ومناداة ربة الشعر يقول في قصيدته «يقولون» :

يقولون لي وأغاني الحياة رعود شبابتي تهزم
يقولون لي : أنت للجائعين هل الشعراء الا هوى يحلم ؟!

بلى أنا أغرودة للربيع بأرشق أطيابه تفغم !

اذا أنا غنيت مات النشيد على ألف حشرجة تكظم

بلى أنا للراشفين الكئوس اذا لم تكن من دمى تفغم !
وللحب ان كان في (حينا) فم بابتسامته ينعم !
بلى أنا للحلم لا للنضال اذا لم يكن في عروقي دم !

ثم يعيد قوله بوضوح اكثر في قصيدته «السراب البعيد» :

أيها الظامئون لن تجدوا النبع ولا الظل حوله في نشيدي !
لن تناموا ملء الجفون علىالحلم على همسةالهوى في قصيدي!
ان كبا الشعر دون همي فحسبي أنه كان قطعة من وجودي

وهكذا تعددت ظواهر اقتران الكلمة بدوافعها من حب ، وقلق ، وتعلق بالخيال ، ومشاركة لقضايا الشعب .

وقد نجد في الظاهرة الاخيرة ما يوحي بالتزام الشاعر لقضية شعبية ، ومع هذا ، فتناول قضايا الشعب شيئا يلفت نظر كل فنان ، ولكنه ليس ظاهرة شائعة لدى الجميع ، يمكن ان نلتمسها في معظم انتاجهم لكن تيار التعاسة والقلق والعذاب هو اكثر هذه الظواهر سريانا ، فحين يصور لنا الشاعر عذابه ، نشفق عليه ، ونتعاطف معه، ونشاركه وجدانيته المعذبة ، وهو لا يقتصر على الصياح فحسب ، وانما يجتهد في بلورة عذابه ، وجعله موضوعيا ، وهو حين ينجح في أحاسنا بذلك العذاب ، وبالتالي مساعدتنا على اكتشافه في نفوسنا يبلغ اوج مناه ، ويتحقق له من النجاح قسط كبير .

بورسعيد يوسف نوفل



محمود الحسنية

نكبة الاندلس على لسان اهلها

بقلم محمود الحسنية

* * *

لم تنكفيء الحركة الفكرية الادبية في الاندلس ، مع اندحار سبتة ، وقرطبة ، واشبيلية ، ومرسيه ، وطليطلة ، وبلنسية ، وشاطبة ، وميورقة ، وجبل العيون ، ولم تنطفىء شعلتها مع اصطلاء نار الفتنة التي اشعلها العدو بين امراء العرب ، بل جيشت النكبة لهيب الفكر ، فنطقت الجراح بكلمات ، مدوية ، مجلجلة ، ثائرة ، ملتاعة ، بغروب شمس حضارة طالت وتطاولت فلفت الدنيا ، وفجرت الاعاصير بزخمها ثراء الفكر لدى قادة اعلام المعرفة ، حيث حفل عصر بني الاحمر في غرناطة بجمهرة من اقطاب الفلسفة ، والطب ، وأكابر الادباء ، والشعراء ، والفقهاء ، من مقيمين ، ووافدين . من هؤلاء ممن اخص النكبة بتآليفه العديدة ، وكتب عنها بمرارة وتحرق :

١ ـ ابن الحكيم : هو ابو عبدالله ، محمد بن يحيى اللخمي ، العالم ، العلامة ، ذو الوزارتين ، المعروف بابن الحكيم ، المولود في رنده في شهر ربيع الاول ، سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦١ م ، المتوفي قتلا ، في غرناطة ، غرة يوم الفطر ، مستهل شوال ، سنة ٧٠٨ هـ ١٣٠٨م . يصف النكبة وصفا دقيقا ، شاملا ، ملما بكل مراحلها ، بقصيدةعصماء ، من عيون الشعر ، حيث يقول :

لكل شيء اذا ما تم نقصان … فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول … من سره زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقي علي أحد … ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة … اذا نبت مشرفيان وخرصان
وتقتضي كل سيف للفنا ولو … كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
اين الملوك ذوو التيجان من يمن … واين منهم اكاليل وتيجان

الى ان يقول :

دهى الجزيرة امر لا عزاء له … هوى له أحد وانهد ثهلان
اصابها العين في الاسلام فارتزئت … حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسال بلنسية ما شان مرسية … واين شاطبة ، ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم … من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص(اشبيلة)وماتحويه من نزه … ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن اركان البلاد فما … عسى البقاء اذا لم تبق اركان

الى ان يقول عن قسوة النكبة :

يا من لذلة قوم بعد عزهم … احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم … واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم … عليهم من ثياب الذل الوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم … لهالك الامر واستهوتك احزان
يا رب ام وطفل حيل بينهما … كما تفرق ارواح وابدان
وطفلة ما رأتها الشمس اذ برزت … كانما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة … والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد … ان كان في القلب اسلام وايمان

٢ ـ لسان الدين ابن الخطيب ـ يدون بالتسلسل امهات المدن التي استولى عليها العدو : ويبرز العلامة القرطبي الاصل واللوشي المولد ابو عبدالله محمد بن سعيد السلماني ، صاحب اللقب الشريف، لسان الدين ابن الخطيب ٧١٣ ـ ٧٧٦هـ ، ١٣١٣ ـ ١٣٧٤ الوزير الشهير لابي عبدالله محمد بن يوسف بن الاحمر، ذو الوزارتين، الطائر الصيت، والمثل المضروب في الكتابة والشعر ، ومعرفة العلوم على اختلاف انواعها ، فيقول :

في اثناء هذا الهرج ، وهيجان هذه الفتنة ، وانفراد كل يد بما ملكت ، استولى العدو على مدائن جليلة ، وقلاع حصينة ، منيعة ، وثغور شريفة ، وعمالات خصيبة ، وربوع آهلة ، وأطراف بعز الاسلام الذي وطئها شاهدة ، مثل مدينة فلهرة ، وانتيشة ، ومدينة سالم ، والمدينة البيضاء : مدينة سرقسطة ، ثم في مدة بعدها ، على مدينة طليطلة ، وكانت من الاندلس محل المركز من الدائرة ، ثم بطليوس ، وبلنسية وميورقة ، وشنترين ، واشبونة ، وطبيرة ، ولبلة ، وجبل العيون : وكورة باجه ، ثم في مدة بعدها على ابذة ، وبياسة ، وبايرة، في مدة بعدها ، على عهد ابن هود الاخير ، على نحو خمسماية بلد فيها شاطبة ، ودانية ، وماردة ، والكرس ، ثم في مدة بعدها ، بين تنازع ابن هود وابن نصر ، على قرطبة ، واشبيلية المدينة التي سماها العرب حمص ، ثم في مدة بعدها من يد ابن نصر الاول على مرسية ، وجيان ، ولورقة ، وشريش ، وكم تبع هذه الامهات من بنات ،وهتكت من حرمات ، وترك الاسلام من عيون وجنات .

ثم يبدي ويقول : ومن اعتقد ان هذه البقعة الاندلسية التي لاذ بها العدو فنسفها نسفا ، ولفها لفا كسواها من بقاع الارض ، جمالا ونظرة ، وانفساحا ونعمة ، وتشييدا ومنعة ، وناسا وحيوانا ، وخلقا وعادة وزيا ، ونبلا وادراكا ، وصنائع وانقيابا ، وبأسا وشهامة ، وظرفا ولطافة ، فقد ظلمها حقها ، وبخسها وزنها !.. والشاهد الصلات والموضوعات ، وما صنف العلماء من الطبقات ، وما نقل عن مواقف الحروب ، وما دون من المنظوم والمنثور ، فوا اسفي عليها ، من معالم اعلام ومغاني ايمان ، واسلام يخبر الان ، شواهدها ، عن الغائب وراهنها عن الغابر .

ويتحرق ابن الخطيب على تساقط المدن الاندلسية ، الواحدة تلو الاخرى ، تلك المدن التي حباها الله من الريع ، وغدق السقيا ، ولذاذة العيش ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وصحة الهواء ، ونبل الاذهان ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن والاعتماد بما حرمه الله الكثير من الاقطار مما سواها ، فيحث الناس على الجهاد ، قائلا :

ايها الناس رحمكم الله ، اخوانكم المسلمون قد دهم العدو ـ قصمه الله ـ ساحتهم ، ورام الكفر ـ قبحه الله ـ استباحتهم ، وزحفت احزاب الطواغيت عليهم ... وانتم المؤمنون اهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب بلا تحفزوه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد فقد تعين ، الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الاسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام،

الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فاغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم ان تنكثوه ، اعينوا اخوانكم بما امكن من الاعانة ، اعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، وآسوا بانفسكم واموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين ايديكم ، والسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه (يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم) .

ومما صح عنه قوله : « من اغبرت قدماه في سبيل الحق حرمهما الله على النار» ،«لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم» ، « ومن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا » .

ادركوا رمق الدين قبل ان يفوت ، بادروا عليل الاسلام قبل ان يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالالسن والاموال حق جهاده : ثم يقول :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد
ان قال لم فرطتم في امتي وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو ان العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

كلمات كلها تنطق بالتفجع ، والتحرق ، صعدها من نفس حرى لسان الدين ابن الخطيب العلامة الذي كان له من ضخامة التآليف ، في شتى انواع العلوم المفيدة ، ما زاد على الخمسين ، بينها المجلدات العديدة الاجزاء ، ولا غرو اذا وصفه ابن الاحمر « بانه شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ، وكاتب الارض الى يوم العرض » . اذ لا بد لمن اراد ان يطل على الجزيرة الخضراء ، الناطقة بذلك التراث الخالد ، اذا اراد ان يتزود من تلك الحضارة التي ضربت روافها على العالم ، من ان يسترشد بما تيسر له من تصانيف وتآليف هذا الاديب الكبير .

٣ - ابن عاصم ورأيه في النكبة : وقال الامام الفقيه ابو يحيى محمد بن عاصم المتوفي ٨٨٩هـ ١٤٨٣م الوزير الكاتب ، الشاعر الثائر ، خاتمة رؤساء قضاة الاندلس ، عندما رأى اختلال امر الجزيرة ، واخذ العدو معظمها ، ولم يبق اذ ذاك بيد المسلمين ، الا غرناطة ، وما يقرب منها ، مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ .

« من استقرأ التواريخ المنصوصة ، واخبار الملوك المقصوصة ، علم ان الاعداء ، لم يدركوا في المسلمين ثأرا ، ولم يدحضوا عن انفسهم عارا ، ولم يخربوا في الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وامصارا ، الا بعد تمكينهم لاسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ، ثم يقول : وتطاولت الايام ، ما بين مهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ،وموافقة وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا امل للطاغية ، الا في التمرس بالاسلام والمسلمين ، وأعمال الحيلة على المؤمنين ، واضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين .

سقوط غرناطة : قال صاحب التصانيف الشهيرة ، القاضي العلامة شهاب الدين احمد بن محمد المقري ، القرشي التلمساني ٩٩٩ - ١٠٤١هـ - ١٥٩١ - ١٦٣١م رأيت بخط الامام عبد الواحد الونشريشي: « استولى العدو على جبل الفتح سنة ست وستين وثمان مئة ، وعلى الحمة تاسع المحرم ، يوم الخميس عام سبعة وثمانين وثمان مئة ، وفي عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدو على جميع بلاد الاندلس ما عدا غرناطة وبشرتها ، وفي عام اثنين وتسعين استولى على مالقة ، في رمضان منه ، وفي عام سبعة وتسعين استولى على غرناطة »

ولما دخل قائد العدو فرديناند الخامس سنة ١٤٩٢م - ٨٩٧هـ مع خمسين الف مقاتل الى الحمراء ، بعد حصار دام سنة ، خرج اميرها ابو عبدالله محمد بين ابي الحسن على النصرى ، واشترط المسلمون بنود الصلح فكانت سبعة وستين بندا فقبلها العدو بجملتها ، ثم نكثها ونقضها فصلا وبندا ، وأمرهم بالخروج من غرناطة الى الارياض ، والقرى ، وفرض عليهم المغارم الثقيلة ، وانزل عنهم حرمة الدين ، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد ، وفرض عليهم المغارم الثقيلة ، وانزل عنهم حرمة الدين ، ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والاذان ، وسامهم بكل انواع التعذيب ، والتنكيل ، والتشريد ، والتجويع ، والتقتيل ، وجاء في الجزء الثاني من كتاب نفح الطيب صفحة ١٢٧٦ : « جرت الدماء في الشوارع ، والطرق ، كالانهار ، والاودية ، وقيد الائمة ، والقضاة ، تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم ، في رقابهم ،والاردية والنجيع سيول ، تخوضها الخيول ، فتخضبها الى ارساغها » .

وزادتهم الطبيعة قسوة ، فاجتاحهم الطاعون ، وهلك منه خلق عظيم ، ورجع الكثير ممن بقي من اهل الاندلس ، الى المشرق ،يندبون حضارة وارفة الظل ، شامخة البنيان ، تنطق الى الابد ، عبر العصور والدهور بعظمتهم .

حضارة الاندلس تنتقل الى الغرب : وهكذا فالمشعل الذي حمله العرب فوق ذرى الاندلس وهاجا ، طوال ثمانية قرون من سنة ٩٢ - ٨٩٧ هـ وهوى من عليائه بتناحرهم ، وتنافرهم ، وبتخاذلهم عن عدو متربص بهم ، انصرفوا عنه الى اللهو والترف ، انتقل الى الغرب مشعا ينير امامه معالم الرقي ومعارج التقدم .

وقد اتفق المحققون من مؤرخي الغرب بان الاندلس كانت المجاز الاكبر لانتقال علم الطب والفلسفة ، والصناعة ، والزراعة ، والهندسة، الى أوروبا ، لان العرب لم يتركوا فرعا من فروع العلم ، ولا مسلكا من مسالك التمدن والرقي ، الا ودونوا فيه ، من تآليف وترجمة ، لذلك ارتقت على يدهم ، علوم الطب ، والجراحة ، والصيدلة ، والفلسفة ، والمنطق ، والهيئة ، والرصد ، والحساب ، والجغرافيا ، والفنون العسكرية ، والملاحة ، وخزائن الكتب ، والاندية العلمية ، وقال امير البيان الامير شكيب ارسلان ١٨٦٩ - ١٩٤٦م ادخل العرب الى اوروبا الكاغد والبارود وهم اول من استعمل المدافع النارية ، وفيها قال لسان الدين ابن الخطيب :

وظنوا بان الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونه الصعق والرعد
عجائب اشكال سما هرمس بها مهندمة تأتي الجبال فتنهد
الا انها الدنيا تريك عجائبا وما في القوى منها فلا بد ان يبدو

واذا كانت حضارة العالم سلسلة حلقات متصلة ، فان اهم واعظم تلك الحلقات ما يمت الى العرب بصلة . ومن يمعن النظر في درس حضارة العرب ، وفي مراجعة كتبهم ، العلمية واختراعاتهم ، وفنونهم، تظهر له الحقائق الواضحة ، والافاق الواسعة ، وسرعان ما يرى ان العرب هم اصحاب الفضل في تعريف القرون الوسطى بعلوم الاقدمين ، وان جامعات اوروبا لم تعرف لها مدة خمسة قرون ، موردا علميا سوى مؤلفاتهم ، وقال الدكتور غوستاف لوبون في حضارة العرب :

« اذا كان هناك امة نقر باننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم ، فالعرب هم تلك الامة وهم الذين مدنوا اوروبا ، مادة وعقلا ، واخلاقا ، اذ لم يفقهم قوم في الابداع الفني .

ثم يستطرد ويقول : يرى بعض المؤلفين ان لافوازيه هو واضع الكيمياء ، وقد نسوا اننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ومنها علم الكيمياء صار اكتشافه دفعة واحدة ، وانه وجد عند العرب من المختبرات ما وصلوا به الى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع ان ينتهي الى اكتشافاته بغيرها » . وقال سيديو : « ان العرب سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضوي وفي نظرية دوران الارض » .

ان حضارة هذه بعض معالمها جديرة بأن تتوقف عندها الامم العريقة لتستزيد قوة في تدعيم صرح حضاراتها . وان خسارة العرب في حصيلة معارك الاندلس لم تخسرهم ذلك التراث العظيم الذي خلفه وتفاعل في تكوين حضارة ينعم العالم بها اليوم .

محمود الحسنية

قصة

فوزية

بقلم اسماعيل علي اسماعيل

فرغت من ارتداء ملابسي .. نظرت الى الساعة .. كان عقرباها يتمددان فوق الثامنة . هبطت الى الزقاق .. الصباح رطب ندي .. طارت عيناي الى نافذة الطابق الثاني من البيت القائم في آخره .. ارتدتا من فورهما كانت النافذة مغلقة .

مشيت في الزقاق .. لا أمل في لقائها اليوم .. انعطفت الى الشارع .. لم اكد احطو فيه خطوة حتى لمحتها .. خفق قلبي .. تلاحقت انفاسي . أسرعت الخطو .. أتقدم منها الان واحييها . عدت فأبطأت من خطاي .. انتظر حتى منتصف الشارع قرب الجامع القديم .. ليس عنده مارة .. كلهم يأخذون الشارع الاخر طريقا لهم .. كلا الشارعين ينتهي الى الميدان .. لكنها اختارت هذا الشارع الاقل صخبا وازدحاما .. تقطعه كل يوم في ذهابها الى عملها وايابها .. لكم يضايقني أن تعمل سكرتيرة لمدير المصلحة .. ان ما يقال عن السكرتيرات يثير التقزز يؤجج السخط .

انها تدنو من الجامع .. قليل من المارة يمضون في صمت .. يمضغون همومهم .. لا أحد يرمق الاخر . خطوات واقترب منها .. صباح الخير .. وتتوقف .. لا .. لا اريدها تتوقف .. ساعتها كل ما أعددته من كلام يتناثر .. يضيع .. فلا أجد ما أجريه على لساني .. ويجف حلقي .. وتحدق في مستغربة .. وتمر على شفتيها ابتسامة .. حلوة .. سريعة .. وعبثا تضيع بسمتها .. عيناي تتحركان في بئر عميقة .. فلا تريا الا جدرانه الملساء .. وحافته المشوشبة .. لساني يرتفع ليصفع سقف حلقي ثم يرتد مفزعا من جفافه .. وتشققه .. اصابعي تنزلق فوق بعضها .. العرق البارد يندبها صمت ثقيل يضرب رأسي .. يفتح فيها ثقوبا .. ينفذ منه دوار .. دوار عنيف .. يكاد يطوح بي ..

فكري تاه .. بدده الدوار .. الا ترين جمودي ؟.. لم يبق في راسي فكرة واحدة من عشرات الافكار . بل مئات .. اعددتها لاهديها اليك .. مغلفة في رداء جميل مثل ثوبك هذا الوردي .. لكني أفتش عنها فلا أجد بقية منها .. تمزقت .. بليت .. لم يبق منها خرقة .. ولا حتى خيط .. اشدك به واجري الى غرفتي .. العزلة هناك تنتظر اوبتي . عند الظهر حين ارتد من عملي .. تلقاني عند الباب .. تجرني الى الداخل .. تطعمني غذائي بيديها .. في صمت . تحملني على صدرها الى فراشي .. تلفني .. اغوص بها .. توقظني عند العصر .. بعد المغرب .. قبيل الليل .. قرب الفجر فلا اخرج منها .. أظل غائصا فيها .. في أعماقها صمت وسكون .. لا صخب ولا ضجر .. لا شجار ولا غضب .. صمت وسكون .

ـ الناس يروننا .. فلنمض .. انه طريقك ..

ـ لكنك لم تقولي هذا اول مرة لقيتك .. وكنا في هذا المكان ..

ـ كنت مرتبكا .. لم تشجعني على ان امشي الى جوارك .

آ .. وقعت .. ماذا تظنينني فاعلا وانا ماض الى جوارك .. اول مرة حين وقفت تردين تحيتي .. بهت .. تجمدت .. ورأيت عينيك العسليتين تلقيان بشباكهما حولي .. فقذفت في وجهك عبارة وحيدة .. غدا القاك .. وجريت امامك .. وانا احس ان قامتي تضمر وتتكور وبلغت الميدان فراحت تتقاذفني الاذرع والاقدام .

ـ الميدان يقترب .. ولم تقل ماذا تريد ..

ـ انا .. اريد .. شيئا . لا شيء .. بل شيئا .. انه .. احصائية .. كتيب .. تطبعونه عندكم ..

ازداد احمرار العسل في عينيها .. توهج .. اتقد الطلاء فوق شفتيها .. حرق البسمة الحلوة .. اشعل بسمة فيها دخان .. خنق الدخان انفاسي .. لم يتحرك لساني ليقذفها بعبارته الوحيدة .. غدا القاك .. اماتها الدخان على طرفه .. لفها في غلالة خانقة .. قامتة هرولت وساقاي تتشابكان .. وقدماي تتلاحمان .. حتى غيبني الزحام .

ما هذا .. فات الجامع .. الميدان يقترب .. ستضيع في الزحام .. فلأهرول خلفها .. كيف .. الناس يهرولون نحو الميدان .. يمرون بها .. يلتفون حولها .. هناك .. عند الجامع كان الصمت .. لم يكن ثمة كثيرون .. والعيون مسجاة .. فوقها رموشها .. هنا العيون بلا رموش تأكلها .. تتهمها .. انها تستدير .. تلتفت .. آه .. كانت تراني وانا أخطو خلفها .. شفتاها تنفرجان .. ينبعث من بينهما لهب .. هذه المرة لهب بلا دخان .. اللهب يحرق وجهي .. يسري في جسدي .. يصهر عروقي . اني اذوب .. لا احد يخف لنجدتي .. الكل يندفع .. ليس نحوي ليطفئوا حريق اعماقي .. يندفعون نحو الميدان ليخمدوا حرائقهم في الزحام .

غابت قطعة الجمر التي اشعلت النار في جسدي .. وسط الاجساد المتلاطمة في الميدان لكن الضحكة الملتهبة ما تزال هناك .. تنتصب في اول الميدان .. خلفتها وراءها لتسد

علي الشارع . مضيت في تثاقل .. صعد اللهب من داخلي دخانا ليس فيه رائحة لحم محترق .. نسج الدخان سحابة فوق عيني .. حجبت السحابة الضحكة الملتهبة .. تهتكت السحابة .. تألقت عيناي .

في قلب الميدان .. اصطدمت عيناي بشفتين منفرجتين .. لاذتا مسرعتين بالجفون .. اطلتا من وراء الرموش في انكسار .. لم تجدانها الضحكة الملتهبة .. انها بسمة .. بسمة وادعة .. اطمأنتا .. بقيتا مفتوحتين .

تمطى لساني .. ـ صباح الخير .. انهالت الكلمات على اذني ..

ـ مئة في المئة انكما تواعدتما .. رايتها وهي تدخل الميدان ضاحكة .. وها أنت غارق في التفكير فيما سوف تعيشه اليوم .. لا تحاول الانكار .. ولا تنس اني الذي لفت نظرك اليها وزودتك بكل شيء عنها .

هب لساني وانطلق يردد ..

ـ منصور .. ارجوك .. ان فوزية ليست لي ولست لها .. انها جارة .. ومهما قلت انت عنها وعن عبثها فلن اقترب منها مرة ثانية ..

ـ افهم من ذلك انك لم تحدثها .. يا لخيبتك .. لو كنت اسكن وحدي مثلك .. كنت اعمر شقتي كل ليلة .. تعطيني مفتاحها يوما وأنا افتحتها لك ..

غاصت قدماي في الارض .. سقط بينهما جسدي المرتعد .. دفنته ساقاي المرتجفتان امتد القوام الماثل امامي .. أخذ يطول ويطول حتى بلغ السماء .. صار غرابا اسود .. انقض الغراب فوقي .. حملني بين مخالبه وطار في الفضاء. جرت امي في الجرن .. صاحت .. خطف الغراب الكتكوت . طوح الغراب الكتكوت فوق النخلة . سقط الكتكوت في حجر امي .. صرخت امي .. الغربان هناك لا تخطف الكتاكيت الصغيرة .. تخطف الفراخ الكبيرة .. من فوق فراخها .. لتنهش لحمها . اللحم هناك طري. وكثير .. ورخيص .. في كل مكان تلقاه .. ليس عندنا .. نادر .. وشحيح . عندنا .. لا نراه الا يوم السوق .. حيث الزحام . هناك .. كل يوم .. عندهم سوق .. وزحام .. ولحم طري وشهي . والقطار مثل الغراب .. اسود مثله . لا أصدق ان القطارات انقلبت حمراء وخضراء .. لا تنفث الدخان انها ما زالت سوداء .. مثل الغربان .. ستخطفك لترميك هناك .. ليتها ترميك فوق نخلة .. السعف اخضر وطري .. وتحت النخلة تراب لين .. ليس هناك نخل ولا تراب .. هناك احجار .. احجار عالية فوق بعضها .. واحجار تغطي التراب .. احجار خامدة .. واحجار لاهثة .. تطحن الاجسام .. تهرس الاقدام ..

ـ ماذا اصابك .. يبدو انك تحبها .. لا تخف سابقيها لك .. لكن بشرط ان تعطيني المفتاح .. وليكن اليوم فعندي صيد خاص .. نشوة .. زميلتي في قسم التخطيط .

امتدت مخالب الغراب الى جيبي فخطفت منه المفتاح الصغير ..

ـ اليوم .. الساعة الرابعة .. تفدى انت في أي مكان وسوف ادفع لك ثمن الفداء .. ابتلعتنا ساحة الوزارة معا ثم ما لبثت ان فرقتنا ابوابها .

عند الظهر .. لفظتني الساحة وحيدا .. لم افتش عنه . خرجت لافتش عن مكان اتغدى فيه .. شيعني شارع وابتلعني آخر .. وفي كل شارع كان ثمة مكان ومكان .. ينشر حوله رائحة طعامه او دخان شوائه .. لكن قدماي كانتا تشيحان عنه .. وتواصلان المسير بالجسد المنهوك الذي حمل عليهما .. تمضيان به .. تتلمسان له السبيل وكأنه بغير رأس .. او برأس لكن بغير عيون .. جسد أعمى .. له عكازتان يتحسس بهما الطريق .

يا للغرابة .. اراني عميت .. كيف لم أع اني ماض الى الزقاق .. مؤامرة خفية .. دنيئة . لكنها لن تكون .. من ائتمنك لا تخنه ولو خانك . اختلست النظر الى ساعتي .. الرابعة الا الثلث .. لم يبق كثير .. فرصة طيبة ان امضي البقية متفقدا هذه الحواري .. اوه .. الطين .. هذه الحواري تسبح دائما في ماء وطين .. اني تعب .. اعود الى البيت .. ليس الى الشقة فهو لم يزل معها هناك .. الى سطح البيت استرخي فوقه .

مشيت .. تسلقت السلم في هدوء وحذر . فوق السطح طالعني مقعد قديم . اندفعت نحوه لاهثا .. توقفت قبالته برهة .. لم يكن قذرا ولا متهالكا .. كان أصلب مني عودا. استدرت بعيدا عنه .. اريد ان ارى نشوة التخطيط . اتجهت صوب السور المحيط بسطح البيت .. انحنيت فوقه .. ارسلت بصري الى الشارع .. دار دورة ثم حط فوق باب البيت.

انشقت ضلفتا النافذة في شقتي. اطل منصور براسه من الشق .. تلفت يمينا ويسارا . ضحكت .. رائع منصور .. تخير وقت اغفاءة الظهيرة .. وقت يسكن فيه كل ما في الزقاق .. حتى الصبية .. لا أحد .. اطمئن . دخلت رأس منصور .. وبقيت راسي بارزة من فوق السور . تعلقت عيناي بالباب تشوقا اتسعت حدقتاهما ترقبا . انفرج باب البيت .. خرجت الى الزقاق ملاءة لف .. ليس في بيتنا من تلبس ملاءة لف .. كلهن سبور .. محال ان تكون نشوة . اتجهت الملاءة اللف في خطوات مسرعة ناحية البيت المنفرد بآخر الزقاق .. وقفت على عتبة بابه .. خرجت منها رأس قلقة .. رمت بيتنا بنظرة خاطفة ثم انسلت داخله .

انفرست النظرة بين حاجبي .. تفجر من حولها عرق .. دم .. نشر غشاوة فوق عيني ملأ فمي مرارة .. تهاويت . مكثت غير قليل لا اعي

عروسة الشعراء

صباحك عاطر والثغر ضاح — ووجهك مثل أزهار الاقاحي
تنيرين الحياة شبيه شمس — تنير الارض من كل النواحي
كأنك زهرة ضحكت وقالت — جمال الكون يزهو من وشاحي
أنا معبودة الشعراء طرا — أنا زهو المسا وسنى الصباح

فهذا الروض لم يزهر جمالا — بدون محاسني ورواء زهري
وهذا الافق لم يظهر بديعا — بغير مفاتني وجميل سحري
وهذا الكون لم يرفل جلالا — بدون كواكبي وضياء ثغري
فأنتم معشر الشعراء كنتم — بدون روائعي من دون شعر

اجبت وحقك المنشود حق — فلا يجلو الحقيقة غير شمس
فأنت عروسة الشعراء طرا — وانت المهرجان بكل عرس
بك الاحلام مع كل الاماني — وأجمل ما نرى بغد وأمس
ورحت أقبل الحسناء شوقا — فلم الثم سوى قلمي ونفسي

بوانس ايريس ـ الارجنتين — توفيق الشماس

شيئا . اطياف تمر بي لا اتبينها .. كلمات تطن في اذني لا افهمها .لممت بعض نفسي .. اخذت اتدحرج فوق درج السلم . بلغت شقتي .. دفعت بابها .. دفعت من خلاله بجسدي المتداعي . تلقفني منصور وعلى وجهه امارات الحيرة والدهشة . حدجته بنظرة حادة . سألته في نبرات تهكم :

ـ اين نشوة التخطيط ؟..

اجاب مسرعا : ذهبت منذ قليل .. كان بودي ان تكون معي ..

ارسلت ضحكة خفيفة كادت تذهب بها المرارة التي تملأ فمي وقلت :

ـ انا لا اعرف التخطيط فكيف تكون لي نشوته ..

هاله ما سمع ورأى .. وادرك ان ثمة شيئا واقعا لا محالة .. انحنى يلبس حذاءه . حين اعتدلت قامته حاول ان يجذب الى شفتيه بسمة يداري بها ما اعتراه .. لكنها خذلته. هم يستأذن في الانصراف .استوقفته سألته وانا اشير الى جانب في الغرفة غير بعيد .. قامت فيه زجاجة بيرة وكوبين .. احداهما فارغة والاخرى مليئة حتى منتصفها ..

ـ ايتهما كوبها ؟

قال متلعثما : هذه المليئة حتى منتصفها ..

طفقت اتفرس ملامح وجهه .. وشعور تداخل فيه المقت والمرارة يتمرغ في اعماقي . تولاه الارتباك دبت راحة عجيبة في كياني المهدود .. وانا اراه بين يدي وقد تعرى من شجاعته وثباته . فجأة تأجج حنقي وسخطي . صرخت فيه ..

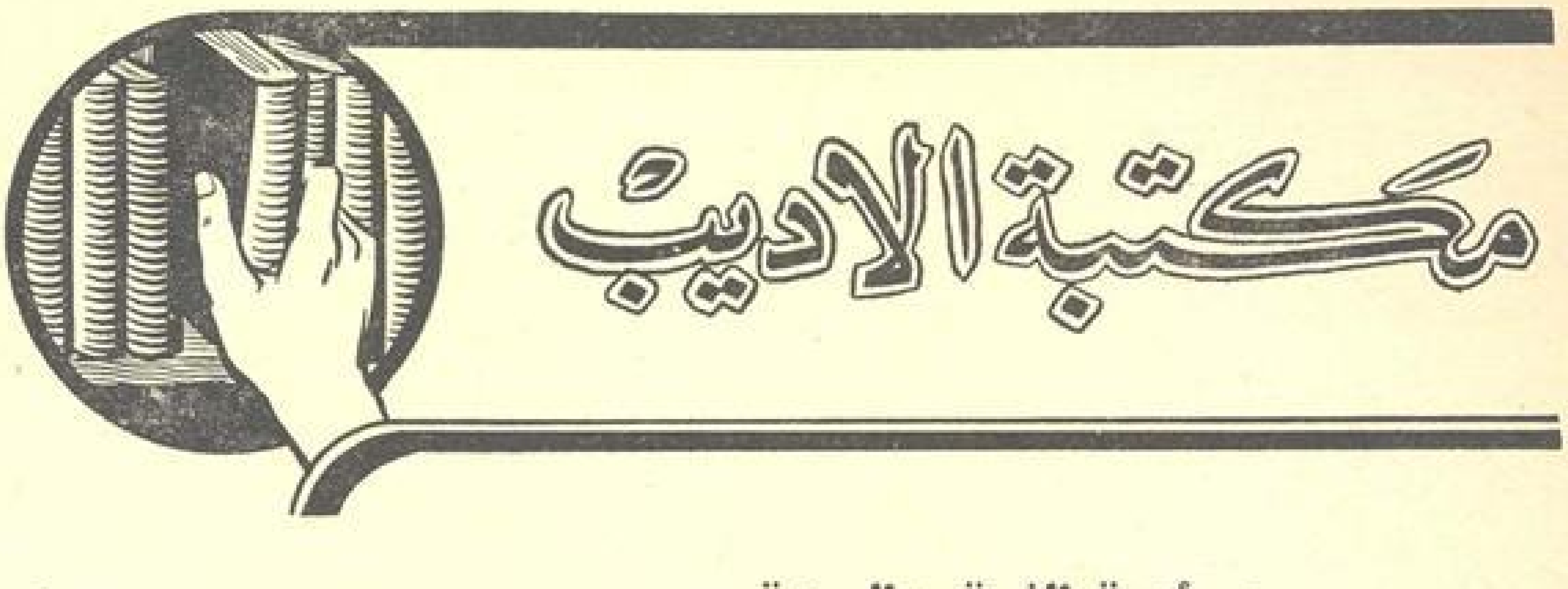
ـ ماذا تنتظر ؟..

خرج لتوه يتعثر في حيرته .. وذهوله . بقيت وحيدا .. احدق في الكوب المليئة حتى منتصفها . مددت يدي .. قبضت عليها .. كدت احطمها بين اصابعي . خففت من قبضتي على الكوب .. مشيت بها الى النافذة . فتحت ضلفتيها عن آخرهما . نظرت منها . رأيت فوزية تطل على الزقاق من نافذتها .. حملقت فيها .. تلاقت نظراتنا .. سرت في عروقي سخونة .. ارتفعت الى يافوخي .

في عصبية ظاهرة اخرجت من النافذة يدي .. جعلت ادير الكوب بين اصابعي المتوترة وفي عيني وميض تشفى يكشف عن غيظ في واخلي لا يجد له متنفسا. جفلت رأس فوزية وروعت نظراتها . اطلقت ضحكة اعادت رأسي الى الوراء قليلا ثم طوحت في الزقاق ناحيتها بما بقي في الكوب من البيرة .

اختفت فوزية من النافذة .القيت الكوب الفارغة . ارتميت فوق مقعد قريب . انفاسي متلاحقة كأني اتيت جهدا جهيدا . مرت لحظات ..عادت بعدها انفاسي تتردد في هوادة .

القاهرة — اسماعيل علي اسماعيل



مي أديبة الشرق والعروبة

تأليف محمد عبدالغني حسن ـ ٣٢٨ صفحة ـ منشورات عالم الكتب بالقاهرة ـ مطبعة دار الثقافة العربية للطباعة بالقاهرة

انقضى حوالي شهرين على ذكرى وفاة الكاتبة العربية الشهيرة ((مي))، ولم نر في الصحف كلمة عنها او اشارة من قريب او بعيد ، اللهم الا خبر صغير من احدى صحفنا اليومية يشير الى ذكرى وفاتها .!

وكاتبة مثل ((مي)) لها دورها الرائع والشجاع في عالم الادب والمرأة ، يجب ألا تفوت ذكراها هكذا في صمت ونسيان . ولعل الشباب المعاصر لا يعرف عن ((مي)) شيئا ذا بال ، فم يذكرها .. وربما كان غياب أصحابها وأصدقائها عن دنيا الادب ـ اما بالرحيل عن دنيانا او بالاعتزال ـ جعل ذكراها تمضي ولا أحد يسمع بها ويستعيد معها تاريخ امرأة عظيمة من نساء العرب !!

والاستاذ محمد عبدالغني حسن يقدم لنا ـ نحن الشباب ـ كتابه القيم والمضيء لحياة حافلة بالحركة والانتاج والمشاركة الاجتماعية لرائدة من الرائدات . وهذه الرائدة تستحق الكثير لانها قدمت الكثير.. واخال الاستاذ محمد عبدالغني حسن أخذ على نفسه أن يقدم لها شيئا مما تستحقه في كتابه هذا . ولقد حدث ذلك فالكتاب يقدم حياة شاملة في ثلاثة أقسام رئيسية . اولها دراسات وملامح وثانيها مجموعة أحاديث لبعض الادباء عن ((مي)) والاخير منتخبات من رسائل((مي)) ومقالاتها وخطبها.

ويعطينا المؤلف في القسم الاول صورة خاطفة عن نشأة ((مي)) ومولدها في الناصرة .. ويشرح لنا كيف تطور اسمها من ماري الى ايزيس كوبيا الى ((مي)) الذي نعرفها به ، وبين مدى صلتها بالطبيعة وحبها لها وايناسها بعبيرها الفواح ، وفرارها من الناس وارتعادها منهم حتى ليصدق فيها قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير

وقد استبانت ملامح شخصيتها الطبيعية في ديوانها الذي كتبته بالفرنسية ((ازاهير حلم)) والذي ترجم أخيرا الى العربية .. تقول في قصيدة بعنوان ((دعوني)) :

((دعوني في هذا الملجأ الساحر . دعوني وحيدة أحيا مطمئنة ـ بعيدة عن ضوضاء المدن ـ دعوا لانظاري تلك الرؤى العذبة ـ دعوا لافكاري أحلامها الرضية ـ دعوني أنعم بالرقاد ـ دعوني أياما فاني لا أود أن أسمع ـ الا الحفيف الموسيقي الحنون ـ الذي تتنفس به هذه الجبال ـ الا أبعدوا عني ، ولو حينا ، اصوات البشر ـ التي تتبطن الحسد والحقد والفل ـ هنا يطيب لنا الحب ... الخ))

ويستعرض بنا مراحل الافراح والاحزان التي واكبت حياة ((مي)) خاصة تلك القتامة التيخيمت عليها بعد فقد الوالدين ثم مرضها العضال!!

أما ((مي)) الشرقية التي تعتز بشرقها ، وتتثقف بثقافة الغرب وعلومه ، حتى أنها كانت تعرف تسع لغات عالمية ، فقد كانت أنموذجا للتفاعل الصحيح بين الشرق والغرب ، ويوضح لنا المؤلف رحابة الصدر لدى ((مي)) واتساعها لقبول الانتماء الى العالم العربيوالشرقي ثم العالم الكبير . كما أنها كانت متدينة وتفسح قلبها لاحترام كل الاديان : الالهي منها والموضوع . و ((مي)) ذات أسلوب واضح يتميز عن كل الاساليب التي يكتب بها الكتاب الاخرون .. فهي كاتبة نافذة الى الاغوار ، متهكمة حين يلزم التهكم والسخرية في أسلوب بارع جميل لا يميل الى التجريح او الخدش . وهي سمة تنبع من نفس صافية محبة للجميع .

و ((مي)) تقف على أعواد المنابر ..فتعرف ماذا وكيف تقول ! وتحاضر خير ما يكون عليه المحاضر او المحاضرة . ولها من كتب الشعر ديوان واحد هو ((أزاهير حلم)) وقد كتبته بالفرنسية ـ كما قدمنا ـ ولكن كتاباتها الاخرى بالعربيةفيها منالشاعرية وروحالشعرالشيءالكثير.

ثم يتحدث المؤلف عن ((مي)) ومدى حبها للموسيقى ـ وقد بلغ درجة عالية ـ ثم يصف دورها في النهضة النسائية ومدى تشجيعها ـ وهو كبير ـ لبنات جنسها في مجالات النشاط المختلفة ، والكتابة عن أديبات عصرها من أمثال وردة اليازجي وعائشة التيمورية ، والمشاركة في أعمال الجمعيات النسائية ... ثم يبين لنا صورة ((لمي)) الكاتبة .. ويعرض لمنتدى ((مي)) ورواده .. ثم ((مي)) بين الكتب .

وهنا أود ان أقف وقفة قصيرة لاقول : لماذا لم يعرض لنا الاستاذ المؤلف قصة العقاد معها .؟ فالعقاد كتب عنها قصة ألحقها بقصة ((ساره)) المعروفة .. وهي قصة ذات موقف جدير بالمناقشة .. وبيان أثره وتأثيره في حياة تلك الكاتبة وذلك الكاتب العظيم ! على كل فان هذه العلاقة بين العقاد ومي ، كانت أنموذجا للعلاقة الصوفية المتسامية التي تقتضي الشرح والتفصيل . ولا أجد خيرا من الاستاذ محمد عبدالغني حسن أقدر عليها . ولكنه لم يعرض لها .. فلست أدري ؟

أما الاحاديث التي سجلها المؤلف مع عدد من الادباء وسيدات المجتمع من امثال : الشيخ مصطفى عبد الرازق وهدى شعراوي وطه حسين والعقاد .... وغيرهم ، قد جاءت متشابهة في الاسئلة والاجوبة الى حد ما .. وربما كان حديث العقاد وحديث المازني خارج دائرة الرتابة التي دارت فيها الاسئلة ..فانت تحس وانت تقرؤها بحرارة قلما تجدها في حديث غيرهما .

ولقد جاءت المنتخبات التي كتبتها أو القتها ((مي)) من رسائل وخطب ومقالات .. صورة نموذجية لاهم وأوضح كتابات ((مي)) .. الا انني لم أدر لماذا لم يضع لنا الاستاذ المؤلف ولو بعضا من فصل من ترجمتها للكتب الاجنبية ، خاصة كتاب فردريك مكس مولر ((الحب الالماني)) ؟

على كل فان الكتاب يعد اول صورة شاملة عن حياة كاتبة عظيمة ورائدة من رائدات المجتمع ، تكتمل فيها صفات المرأة العربية التي تسعى للتحرر والتطور من ثوبهما الصحيح .. ولقد امتازت عن بنات عصرها بأشياء كثيرة .. ولعل ((العقاد)) خير من عبر عن هذا في قصيدته ((آه من التراب)) يقول العقاد :

((سائلوا النخبة من رهط الندى أين ((مي)) هل علمتم اين ((مي)) ؟
الحديث الحلو واللحن الشجي والجبين الحر والوجه السني
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟

الى أن يقول :

شيم غر رضيان عذاب وحجى ينفذ بالرأي الصواب
وذكاء ألمعي كالشهاب وجمال قدس لا يعاب
كل هذا في التراب ! آه من هذا التراب !

وصاغ الاستاذ المؤلف هذه الحياة الشاملة ((لمي)) في أسلوب رصين ومتميز .. لان المؤلف شاعر .. وشاعر له في دنيا البلاغة رصيد هائل .. وتقرأ أسلوبه فتجده يتميز عن أسلوب من يكتبون بمثل رصانته فهو يستعمل التصريفات والتركيبات الخاصة به .. والتي تجعلك أمام

شخصية فريدة في كل ما تكتب وكل ما تقول .

وبعد فانني أعجز ان أنقل كل ما يدور بخاطري عن هذا الكتاب.. لانه قيم ومضيء كما قدمت .. ولا أستطيع أن أوفيه كل حقه من التقدير على هذه الصفحات .. لان المجال ضيق .. وليجد القراء فيه ما يشفي شوقهم .

البحيرة – ج ٠ ع ٠ م **حلمي محمد القاعود**

•

طريق النصر في معركة الثأر

تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو المجمع العلمي العراقي – ٤٩٦ صفحة – منشورات دار الفتح ببيروت – مطابع دار لبنان ببيروت

عنوان حربي لكتاب ضخم يصور مأساة فلسطين ويعرض حوادثها عرضا مفصلا بأسلوب سهل ممتع لمؤلفه المؤرخ الصادق والكاتب العربي الجريء اللواء الركن محمود شيت خطاب القائد الذي شهد معركة فلسطين مع من شهدها من قادة العرب وجنودهم .

وهذا الكتاب نتاج تجاربه ومشاهداته ودراساته ، واسع الفصول غزير المادة يأخذ بيدك الى حوادث هذه المأساة ويصف لك مبلغ مكانة فلسطين في قلوب المؤمنين وحب العرب لهذا البلد المقدس ويشعرك وانت تقرأ كيف كانت عواطف الامة العربية تغلي ابان مؤامرة الاستعمار على وأد هذه البقعة المباركة خوف ضياع اولى القبلتين وجسر وحدة الامة العربية الذي يربط بين الشعب العربي في افريقيا وشعبه في آسيا .

ويشعرك بالبهجة والامل الواسع حين يصور لك اندفاع الناس وتجمعهم حول سيارات الجيش وكيف كانت الامهات يودعن ابناءهن بين الدموع الحائرة وبسمة الرجاء في النصر المرتقب . ولقد كان ضباط الجيش ومراتبه يلتهبون حماسة يستمدون القوة من المجد الماضي الاثيل الذي صنعه الفاروق الفاتح الاول ومن صلاح الدين المنقذ ويتمنون ان يضيفوا الى هذه الامجاد مجدا مؤثلا .

هكذا يبدأ اللواء كتابه بمثل هذا التصوير ، ولكنه لا يلبث ان يريك اسباب الضياع وفقدان الامل في الاعيب السياسة واهمال المسؤولين وتماهل الفلسطينيين انفسهم ثم يعزو ذلك كله الى كيد المستعمرين وعناد الصهاينة وخبثهم ودعم الاستعمار لهم مع ضعفهم وقلة عددهم حتى يريك كيف تقلب الباطل وكيف وقف الحق مكتوف اليدين مبهوتا يتلفت في القرن العشرين قرن اعلان حقوق الانسان وحق تقرير المصير للشعوب الضعيفة المغلوبة على امرها ، ثم يعطف بك فيشعرك ان الاستعمار لا ضمير له ، لا يهمه ان يشرد شعب فلسطين ويأتي بشعب يهود لان شعب فلسطين شعب عربي لا يقبل الضيم ولا يرضى بالذلة ولا يكون آلة وشعب يهود شعب يعرف الكيد ويرضى بالذلة ويكون آلة وركيزة للمستعمرين يكيدون بهم للشعوب الحرة التي تريد ان تعيش كما يعيش الانسان الحر تحت أشعة الشمس .

والمؤلف هنا صريح كل الصراحة يقفك على مواطن الضعف ويريك اسباب الهزيمة ويجعل من اولها اهمال الشاب الفلسطيني اللاهي يتسكع بالمقاهي بلعب النرد والشطرنج بينما يقف اليهودي مدججا بالسلاح يهجم ويدافع ولكنه لا يلوم ذلك الشباب المتسكع لان الاستعمار كبل يديه فكان وجود السلاح بيد العربي جريمة لا يغفرها المستعمر فضلا عن انه لم يدرب خفية او جهارا . اما شباب اليهود فقد كانوا مدربين وكانوا يتدربون بالسر والعلن ويرى ان شباب فلسطين كانوا في ذلك الحين اغناما بلا راع حطم الاستعمار الخبيث ما في نفوسهم من رجولة وطنية صحيحة والهاهم بمتع الحياة .

وقامت دولة اليهود يوم ١٥ مارس ١٩٤٨ في الجزء المغتصب من فلسطين على حراب الاستعمار وجيش « الهاجاناه » جيش يهود والعصابات الاخرى التي انشأتها احزابهم . ودخلت جيوش العرب تحمل كثيرا وتفقد كثيرا دخلت تملأ جوانحها همم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وصلاح الدين وتملأ نفوسها متعة الشهادة في سبيل الله والوعد الحق في جنان الخلد في اعلى عليين مع الشهداء والابرار والصديقين ومتعة الثأر للكرامة والدفاع عن حرمة الحمى الذي داسته اقدام دخيلة .

وتفقد كثيرا : تفقد القيادة العسكرية الموحدة وبعض جيوشها كانت تفقد الخطط العسكرية المرسومة والسلاح والقادة والدروع والطائرات وبعضها يفقد المدافع المضادة للطائرات والمدافع ضد الدبابات بل ان بعضها لم يملك خريطة عسكرية لفلسطين ولما شكلت القيادة العامة شكلت مرتجلة لم يسمع احد اراءها ولم يصغ الى مقترحاتها ابدا . لان الساسة الذين كانوا في القمة لا يملكون ارادة القتال . لقد محاها ضغط الاستعمار عليها ولم يدخلوا فلسطين الا لضغط شعوبهم عليهم وبين الضغطين فرق هائل .

ويصور المؤلف دخول الجيوش العربية تصويرا محزنا ويؤكد ان هذا الدخول بمثل هذا الشكل كان مهزلة من المهازل لم يعرف تاريخ الحروب مثيلا له . ويقول المؤلف ان الاخاء كان متبادلا بين الجيوش العربية ضباطا وجنودا وكانت عاطفة الولاء على أشدها غير ان العاطفة النبيلة تنهزم دوما عند اهواء السياسة المريبة .

لقد أظهر هذا الصراع النفسي بين أبطال الميدان وتجلى بأحلى مظاهره حين تعرض الجيش المصري لهجوم اليهود فقد كانت الجيوش العربية كلها تتحفز للقتال والعون الاخوي الصادق فحالت دون ذلك خدع السياسة وكان نتيجة ذلك ان ظل الجيش المصري وحيدا في الميدان . هل هذا وحده الذي اضاع فلسطين لا يجد المؤلف مبررا ان يقف عند هذا الحد ، ويضع اللوم اولا على السياسة العربية المهملة وعلى اجهزة الاعلام التي لم تستطع افهام العالم حقنا الطبيعي في ارضنا المقدسة التي اقمنا فيها أربعة عشر قرنا وانها جزء متمم لهذه الامة وان ضعف التخطيط في تعبئة الراي العام العالمي وتهيئة الامة العربية الاسلامية للحفاظ على من كان من ابرز العوامل التي افقدتنا هذا الحق.

وكان فقدان السلاح وعدم اعداد الشباب الفلسطيني للحرب مما ساعد كثيرا على ذلك الضياع ، يضاف الى ذلك استعداد الصهيونية العالمية للحرب وتعبئة اجهزة اعلامها ومطامع الاستعمار وخططه وتخبط ساسة العرب وارتجالهم واهمالهم ووقوف سفاراتهم في الخارج موقف المتفرج . وبعد ان يدخل المؤلف مع القارىء في نقاش التعبئة والاعداد للحرب من السلاح الصادق والسلاح الفاسد والجيوش النظامية وفرق المتطوعين للقتال وما رافق ذلك من الفضائل والفعائل والارتجال وما واكبها من تدخل في شؤون المتطوعين الابطال وما فعله المتسللون يرجع الى نفسه ويسأل : ما هو طريق النصر في معركة الثأر ؟

ويجيب على ذلك ويقول اعرف عدوك اولا ، اعرف حقيقة اسرائيل لتتبين مواطن القوة فيها ومواطن الضعف فتستطيع ان تضرب الضربة القاصمة وتستطيع ان تجد الحل المناسب . ويقدم فصلا مسهبا عن عوامل القوة التي تتمتع بها هذه الضيعة التي وقف وراءها الاستعمار فامدها بالسلاح والمال والسياسة ووسع لها في افقها ما لم يوسع لنفسه وفتح لها سبل الاتصال في آسيا وافريقيا واعانها على صنع السلاح العلني والسري حتى أصبحت تمد الدول في الشرق والغرب بما تنتجه من السلاح وليس غريبا ان تصبح من الدول النووية في وقت ما . وبجانب عوامل القوة في اسرائيل يذكر عوامل الضعف ويرجعها الى المادة المتحكمة في نفوس هذا الشعب والى التفسخ الخلقي وكلاهما مدعاة للجبن والى التمييز العنصري بين هذه المجموعة الملمومة من متشردي

الام والحاقدين على البشرية ثم الى موقع اسرائيل الجغرافي بين هذا العدد الضخم من الملايين في الامة العربية من معنويات عالية نظرا لايمانهم القوي بالله وبحقهم ويذكر موقعة جنين ويصورها تصويرا رائعا حين يؤكد ان هذه الموقعة كانت لخطة مرسومة من قبل اليهود ولصدفة مفاجئة للجيش العراقي كان اليهود مستعدين عدة وتخطيطا . اما الفوج من الجيش العراقي فلم يكن يعلم عنها شيئا الجيش اليهودي كان يفوق عشرة الاف مقاتل عددا وكان الفوج العراقي دون الالف عددا وحين التقى الجيشان فر اليهود فرار الجرذان وتركوا وراءهم من القتلى عددا يفوق عدد الفوج العراقي وتركوا من العتاد والسلاح اكثر مما يتسلح به ابطالنا الذين كان لهم شرف النزال ولقنوا اليهود درسا لم ينسوه ابدا .

في هذه الصورة الرائعة التي وصفها اللواء خطاب ملأ قلوب شباب الجيل الصاعد بالامل الباسم المرتقب وملأ قلوب اسرائيل رعبا وجاء ذلك مصداقا لقوله تعالى (ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ..

ويستمر اللواء في عرض الفكر المتلاحقة في هذا الكتاب ويؤكد ان النصر في ارجاع فلسطين آت وكل آت قريب ولكنه يحذر ويبشر بحذر من كيد اسرائيل وخبث الاستعمار وتسلح اسرائيل الذري بمعونة المستعمرين ويبشر العرب بالنصر المبين اذا انصرفوا الى التعبئة في كل نواحي الحياة والى العمل على الوحدة الوطنية في كل مكان لتكون منطلقا للوحدة الشاملة والى اعادة النظر في المناهج واختيار الرجال وتكوين الاجيال وبغير ذلك لن يتم لنا النصر ولا نحلم بالعودة .

ان هذا الكتاب ان دل على شيء فانه يدل على شخصية الكاتب القوية وروحيته الاسلامية العربية . انه شخص الداء وترك الى ارادة الامة العربية الشفاء بأسلوب سهل وعرض جلي وبارع .

بغداد — محمد بديع شريف

رئيس ديوان القصر الجمهوري العراقي

●

ميكروفون الابدية

تاليف سمير شيخاني ـ ٤٠٢ صفحة ـ قطع كبير ـ منشورات المكتبة العصرية بصيداء وبيروت ـ مطبعة (؟)

حين كنت أسكن بمصر في حي الروضة ، بين فرعي النيل ، كان يروقني أن أجتاز احدهما الغربي الى زورة تشفي أدبي وتشيع فكري لدى سيدي الاستاذ الجامعي العظيم « احمد الشايب » الذي تطل شرفات منزله على مصر القديمة ، وهي تتمرى بصفحة النيل البديع .. ولقد اجتزت اليه وتعودت المرور بدار مسحورة كابية كامدة كانت تقوم في جواره واحسبها لا تزال قائمة حتى اليوم . كان « الاستاذ ابو الخير » صاحب تلك الدار المسحورة يحضر الارواح وله مجلة ينشر فيها بحوثه الغيبية في اسرار النفوس ، وما وراء الطبيعة ـ كما يقول علماء الفلسفة وخاصة صديقي القديم الفيلسوف « زكي نجيب محمود » الذي ينكر هذا الوراء ولكنه لا ينكر الطبيعة .

كل هذا مر بخاطري ـ والقلم لا يأسر انطلاقه حد ـ وأنا أتملى بالنظر والخيال كتاب الاخ الكاتب المبتكر سمير شيخاني الذي سماه « ميكروفون الابدية » ولو عربت صدر اسمه لقلت « بوق الابدية » ولو أردت التعمق في صواب التعريب والتمست المناصاة التامة لقلت « صور الابدية » لان الصور ـ كما ذكره القرآن الكريم وكما رحت أتمثله على جناح الخيال ، وانا اسد أذني بأنملتين كما يسد فم القارورة بالفدام ، بوقا عظيما طويل الساق ، متفتح المخرج ، يضعه الملك السماوي اسرافيل على فمه الوسيع فاذا أخذ ينفخ فيه نهضت من رمام الثرى أموات الدنيا الى النشور ويوم القيامة .

كذلك صنع الساحر الماهر واليوغي الباهر الاستاذ « سمير شيخاني » ـ نسبة الى فن اليوغا الهندي في السحر والنيرنجيات ـ فوضع للناس كتابه الجديد الذي ودع به عام ١٩٦٦ ولو تأخر الزمن قليلا ـ وهيهات ان يتأخر ـ لبصم تاريخه بالعام الجديد . وكيف تم أمره فاني أعده هدية سنوية اهدى الي نسخة منه بعيد الميلاد ، وفي مطالع هذه السنة المباركة .

لقد جعل المؤلف النابغ كتابه هذا في ثلاثة برازخ قيامية ـ نسبة الى يوم القيامة ـ واحد للرجال وآخر للنساء وثالث لاصحاب التيجان. كذلك شاء ان يفرق بين أنسال آدم وحواء ، لكنه خالف عن أمر تفريقه فجمع آدم وحواء في بوق أبدي واحد جعله فاتحة كتابه الطريف .

وطريقته في هذا النشور ان يحضر الشخص بذاته ، لا أن يكتفي بروحه ، فهو يمد يده فيصافح المسيح عليه السلام ، فاذا لمس يده تمثل بقول شيخ شعراء العصر العباسي الذي يقول :

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر ان الجود من كفه يعدي

فيصير اليه سر احياء الموتى ـ ولو في دنيا الوهم والتمثل ـ فاذا قراؤه الكثر الذين يرقبون صدور كتبه رقابة الجياع لموفور الاكول في القصاع ، يجدون تلقاءهم اولئك الشخوص ، من كل العصور ، بأعبائهم واصواتهم ولهجاتهم ، فيدير المؤلف حوارا معهم ويأخذ باستدراجهم في أخبار اشتات ، وماجريات كلام في الادب والفلسفة والفن ، وفي كل افق من آفاق المعرفة الانسانية اليسيرة ، التي ليس فيها تعقيد .

وكان أمينا في العزو والاسناد ، فقد ذكر أنه اتخذ هذه الطريقة وهذا الاسلوب الفكري والحواري من أديبين صحفيين فرنسيين هما « فيراري ولبنان » فاذا هو يجعل الصوت محاورا ويقصد بالصوت نفسه ولسانه وفكره . فاذا استمعنا الى صوته يحاور به « شمشون الجبار » أخذ الصوت يقول :

ـ صوت : ... وكانت ترتدي ثوبا طويلا وفضفاضا يتلكأ هنا وهنالك على منعطفات جسدها الجميل ، ففلى الدم في عروقك ، وتبعتها دون ما تفكير الى البئر .

ـ شمشون : قلت لنفسي لعلي أصيب جرعة ماء ، اذا لم أصب شيئا آخر . فلما وصلت الى البئر أنزلت الجرة عن رأسها . ولكنني لم استطع انزال بصري عنها ..

ـ صوت : عن الجرة ..

ـ شمشون : لا ، عن « دليلة » .. طبعا .

ـ صوت : وماذا فعلت بعد ذلك ...

ثم يستمر هذا الحوار حتى يقع شمشون القوي في حماة وبيلة من حب الفاتنة « دليلة » الذي كان بقدرة من قوته الجسمية يدك

الجدران الصفيقة ويزحزح الاعمدة الشواهق الضخام . فاذا عرفت « دليلة » سر قوته ببقاء شعره السابغ مندلعا من رأسه على كتفيه ، وعرف أعداؤه أنه اذا زال هذا الشعر عن رأسه انقلب في الضعف والتداعي خائر العزم كالحمل ، أسقط بيد البطل وذل حتى ينمو شعره نموا جديدا.وكنت أوثر للمؤلف ان لو عرف حواره هو بكلمة (الصوت) لا بكلمة (صوت) التي يفقدها عريان التعريف حلية اختصتها بها لغةالعرب.

وهو في حوارياته هذه الكثيرة يجري لغة ليست بالخفيفة ولا بالعسرة الرفيعة ، وانما هي بحق لغة التحاور في الاخذ والرد بين المتحدثين . والذي قد آخذه عليه أنه جعل التحاور مقصورا عليه وعلى الشخص الذي يعيده جذعا في الوجود ، ولو أجرى الحوار بينه وبين اثنين او ثلاثة في كلام متشابك الخطوط لاتى بحوار اجتماعي وجمعي لا بكلام فردي .

بقي ان يحاسب المؤلف البارع وهو المبتكر للمستطرف ، في قصره كتابه هذا الضخم الوسيع على دنيا أجنبية ما فيها عربي واحد ودنيا العرب ـ بحمد الله والادب ـ ملأى بالكلام والحوار ، ولو أنه نفخ ببوقه عالم أدبنا العربي لصعدت له من أطباق الثرى ألوف تجيء اليه على هون ووفاء ، ولدلف اليه نساء بدل واستحياء ، ولعله في كتاب جديد يطلع به على الناس ، زاهيا بعروبته مؤنسا لقرائه ، وكتبه « أنيس كل جليس » ولست أجور عليه بالنقد ، فانه ربما دفع عن نفسه هذا التقصير بما خاطب به الجاحظ أبا عثمان عمروا بن بحر ..
وأنا أعرف ما يصير اليه أمره من الحيرة حين يبعث من في الثرى من أفذاذ البيان العربي اذ قد يتعبه ان يجري لغة الجاحظ في حواره ـ ولا يجوز ان يجري سواها أصلا ـ وهل كان أبو عثمان الا شيخا من شيوخ التعبير العربي البليغ الفصيح ، فاذا ألبسه لغة العصر رحنا نتمثل الجاحظ وقد تشمر ثوبه الى ما فوق الركبة في لبوس نساء أيامنا المتحذلقات في اللبوس ، فيصير أدب الجاحظ أهكومة الزمن وهو في مكان السدة من البيان . هذا هو السبب الذي قد يعذر المؤلف المشهور، في أمر حواره واجرائه على غير التزام . ويكفي المؤلف فضلا أنه خلع على شخوص كتابه حياة وقادة خافقة باللحم والدم والكلام ، تعج بالحركة والاعتمال ، فهو يقدم على الدوام لقرائه المعجبين بنبوغه ومزايا عبقريته النادرة زادا دسما في الادب والفكر والفن ، في ثمار العقل البشري والشعور الانساني الذي وضعه خلاقنا الاعظم فينا نحن البشر الفانين ، ولا أقل من هذه الآثار ، تروى للقرون عن أشعة فكر الانسان، في التصور والبيان ، يقدمها أديب موهوب وفني فنان .

دمشق **زكي المحاسني**

•

المؤلف والنساء

تأليف ابراهيم الورداني ـ مجموعة قصصية ـ ٢١٢ صفحة ـ سلسلة الكتاب الماسي ـ مطابع الدار القومية بالقاهرة

بعد طول اختفاء ظهر ابراهيم الورداني ثانية ، او بمعنى أدق ظهرت قصة الورداني ثانية . وفي محاولة لتعويض ما فاته في هذه الفترة غير القصيرة ، أخذ يتابع اصدار اكثر من مجموعة بدأها بـ .. « المؤلف والنساء » ! والورداني مهما يختلف القراء في فنه ، فهو صاحب مدرسة مميزة في القصة المصرية القصيرة كان لها تأثير كبير في اكثر من جيل من كتاب القصة ..

وأشياء كثيرة اتسمت بها قصة ابراهيم الورداني حتى غدت ملامح مميزة لها ، تعلن عن وجود صاحبها حتى لو لم يضع اسمه فوقها . من هذه الاشياء ، روح الايناس وخاصة في مقدمته ، وأسلوبه الرشيق المتراقص ، ولمساته الجنسية الانيقة ..

والمقدمة تعكس انتماء الورداني الى هذا الفريق من القصاص الذين يتقيدون بالتقسيم الثلاثي الحرفي للقصة ، البداية والوسط والنهاية. ولكن استاذية أديبنا تموه ببراعة هذه الصفة وتطمس معالمها البارزة ولا تبقى الا نسيجا ملتحما لا تلتفت لتركيبه الا العين الفاحصة الدارسة . قاصنا اذن يؤمن بما تترجمه لفظة المدخل الى القصة او التمهيد لها ، حتى يعبر بالقارىء كينونتها واكتشاف دنياها وطبيعتها ، في أمان نسبيا من عدم الاقتناع باستيحاء العمل الفني للحياة . فوظيفة المقدمة هي تحويل المتلقي الذي يقع وجوده خارج عالم القصة من متفرج الى شخصية من شخوصها . ومقياس نجاح الفنان في هذا الموضوع هو اندماج القارىء في العالم الجديد بحيث تنقطع صلته بكل ما يربطه بحياته الواقعة . وقد وفق الورداني في معظم الاحيان في ان تحدث مقدمته هذا الاثر ، ملتمسا لذلك ، روح الايناس التي ترفرف عليها . ولا شيء أبلغ من هذه الروح في تحطيم السدود التي تقوم عادة بين الغرباء ، سواء اكان ذلك في الواقع المعاش او بين القراء وشخوص القصص . انها تعمل على تقريب النفوس من بعضها البعض ، فتستلب منها حرصها الغريزي على عدم الافضاء او التمسك بالاغطية التي تخفي اسرارها او مكامن الضعف فيها . فتطلق لثرثراتها العنان ، وبهذا الانطلاق تبدأ احداث وشخصيات القصة في التبلور . وتستخدم روح الايناس لغة تخاطب معينة هي لغة تخاطب الاصدقاء ، التي تستهدف الاعماق البشرية المشتركة ، في لفظ شفيف رفيف يملؤه الحب والتعاطف . واكثر الزوايا ملاءمة عند الورداني لاستخدام هذا المنهج ، هو مجلس صحاب تثور فيه المناقشات المختلفة (قصة الخيانة) ، أو توجيه الخطاب الى اصدقاء غير مرئيين (قصة القفص) ، او دعوة القراء الى الاشتراك الكريم فيما يتنفسه شخوص القصة .. « والجالسون ! .. سوف أسرع فاقدمهم لك لكي تحيا بيننا ، تسمع كلامنا ، ولن ينقصك الا ان تأكل أكلنا ! » (الحكاية ـ ص ١٠١) ! ـ ولعلنا نلاحظ في المثال تأثر الورداني بأسلوب ايناس حواريتنا الشعبية.

وقد عرف الورداني اول ما عرف في دنيا القصة بلمساته الجنسية المثيرة ، التي كان يجد ينبوعها المتدفق في انحلال اولاد الذوات ومن يقلدونهم . وكان القارىء يستقبل هذه اللمسات باعجاب كبير ، احد بواعثه ارتياحه للاسلوب الساخر الذي يتناولها ـ اي هذه الطبقة ـ المؤلف به . وبعد يوليه ١٩٥٢ انكمش اولاد الذوات وخلا المسرح منهم او كاد ، فلم يعد لهم بالتالي القدرة على تلوين حياتنا وترك بصماتهم عليها كما كان في سالف العصر والاوان . وانتفى الاهتمام بوجودهم وسلوكهم ، وهكذا أعلن الورداني يوما ان السلاح الذي استخدمه في هذا الميدان ، سيضعه في غمده ازاء تغير قسمات بلدنا بالوجوه الجديدة العاملة . ولكن هذا كله لا يعني ان قاصنا أسقط الجنس كلية من حسابه ، لا لانه من المستحيل ان يموت الزامر واصبعه لا يلعب ، ولكن لان هناك فارقا كبيرا بين استغلال الجنس في فضح مساوىء طبقة وبين استخدامه كأحد المؤثرات الاولى في حياة الانسان .

وأظن انه لم يكن من السهل على قاصنا الكبير ان يتراجع مرة واحدة عن موضوعاته الجنسية ، رغم ايمانه الشديد بضرورة او حتمية هذا التراجع . ورغم انه فعل بطريقة تستدعي الاعجاب وأخذ يواكب في قصصه الظواهر المختلفة في حياتنا ، الا ان ذلك لم يحدث بلا رد فعل ، كما انعكس ذلك في المنعطفات الجانبية غير القليلة التي كان قلم فناننا يجد نفسه يتجه اليها بلا وعي ، بغية استعادة نشاطه القديم المثير ! وليس أدل على ذلك من المواضع التي تناولها صاحب (المؤلف والنساء) احيانا ، مثل فتاة الجيل الثائرة ضد تقليد الزواج اكتفاء بما يتجه لها استقلالها وتحررها من اشباع الروح والجسد كما في قصته « القفص » ..

ومن القصص الجيد في المجموعة (العرق) . انها تعرض ببراعة ومن خلال الموقف الموحى ، هموم الناس سواء الفقير او غير الفقير .. عامل المصعد او غانية الليل . ورغم ان المؤلف لم يتعمق شخصياته كثيرا ، الا ان نبض التناول الصادق عوض هذا التعمق ، وفي مستوى القصة السابقة وبنفس اسلوب التناول البارع المكتفي بالسطح ، يعالج الورداني ماساة واحد من فئة الكومبارس اي الممثلين الثانويين ، من خلال اضطراره لانكار رجولته والتنكر خلف ملامح نسائية والقيام بدور فتاة ، ليستطيع ان يحصل على مزيد من النقود ، هو الفرق بين أجري الدورين ، واسم هذه القصة « نفوس للايجار » .

وفي بعض الاحيان يتعب الورداني من التحليق مع خياله الواسع، ويحس ان القضايا الكبيرة الجادة التي يعرض لها في قصصه تثقله وتمنعه من ان يرفرف بجناحي من خفة ورشاقة في سماء تخيله . فلا يملك الا الاعتراف ـ لا يهم ان كان بطريق غير مباشر ـ بهذه الحقيقة، منها قصته في منتصف الطريق وهو لم يقل كلمته بعد ! كما فعل في (البنت) التي تتناول مفاجأة أب متحرر لابنته الصبية في ظلام السينما مع شاب . ومع ذهوله وثورته يتصل تليفونيا من مكانه ببيته لينادي الام الغافلة لتشاهد فتاتهما . وتكون المفاجأة ان ابنته هي التي تحادثه ! ويعود الى مقعده لينام مستريحا وقد مات التساؤل الكبير او القضية الكبرى التي ثارت في أعماقه وهزته .. « ماذا كنت افعل حقا لو كانت هذه البنت هي وفاء ابنتي ؟ سؤال ترنح في رأسي لحظات مستعصية ، ولا جواب ! أزحته في ضيق ، فررت من التفكير .. » وكفى الله القصاص شر القتال ! وفي قصة أخرى « نزوة » لا يجد الزوج الا ان يعبث بصديقة زوجه التي جاءت للتوفيق بين الزوجين المتنافرين المطلقين . ويوقعها في احابيله ملوحا لها بالزواج ، بحجة انه يفعل ذلك لتلذع الغيرة امرأته فتهب للزود عن مستقبلها تائبة نادمة مستغفرة!!

وفي المجموعة اكثر من قصة تثقلها الصفة ، أعني تغلبها الحرفية اي مجرد براعة الفنان الكبير الذي أوتي موهبة القص حينما لا يكاد يجد ما يقوله ! كقصص (السر الذي نخفيه ، الله ، البرد) فالقصة الاولى عن شاب اقام مشروعا صناعيا جيدا برأسمال حرام أتاه من مبلغ زائد حينما قبض من البنك قيمة شيك لصاحب العمل ، فعول بعد نجاح مشروعه ان يرمي في الفضاء نفس المبلغ كل عام « لعلها تكون رسمال منشود لحائر عابر في الطريق ! » حتى يرتاح نفسيا . والقصة الثانية تعرض للحدوتة المشهورة عن وفاة الطبيب المعالج وشفاء المريض الميئوس منه ! أما القصة الثالثة فهي تسجل تطورات مشاعر مهندس ، من العبث بطالبة جامعية فقيرة ازاء ما قرره من مساعدتها في تسديد مصاريفها ، الى اهدائها هذه المصاريف بلا محاولة لاخذ الثمن ، خوفا من ان يفسد هو صفحة حياتها العذراء .

وأغلب الظن ان هذه المجموعة لم تغربل جيدا او لم تغربل على الاطلاق ، والا لما كان لقصة مثل « الخيانة » ان تاخذ مكانها فيها .فهي ليست مثالا للقصة المسطحة فحسب ، بل والمفككة في سطحيتها كذلك فلا تقنع أحدا حتى في هذه الحدود . ويبدو ان مؤلفها حتى لحظة امساكه بالقلم وأخذه في الكتابة ، لم يكن قد تكشفت رؤياه بعد .فاذا عد مدخلها او مقدمتها استثارة الى سوء فهم معنى مساواة الجنسين ، فقد تناولت القصة نفسها التي تعتمد على ما رواه بهادر ، موضوعا آخر منبت الصلة بالمساواة هو .. خيانة الزوجة ! وقصة ثانية لا تختلف في مستواها عن السابقة ، هي (المؤلف والنساء) التي حملت المجموعة اسمها ، والتي تعرض لحسناء محتالة خدعت كاتبا سينمائيا واستولت على امواله . ويبدو ان الورداني معجب بهذا النوع الذكي من النساء ، لانه يقدمه مرة أخرى في نفس المجموعة في قصة .. « نحن الرجال طيبون » !!

المنصورة ـ ج.ع.م — علاءالدين وحيد

جولة الأديب في شهر

الحركة الادبية في تونس

لم يكن المشرق العربي ، الى عهد قريب جدا ، يعرف من أدباء تونس اللامعين سوى الشاعر الرومنسي أبي القاسم الشابي ، الذي توفي عام ١٩٣٤ في ميعة الشباب وزهو التغريد الحلو . ولم يكن ليتاح للشابي ان يملأ اسمه وشعره آفاق العالم العربي لولا اتصاله بالصحافة المشرقية ، ولا سيما المصرية ، ومجلة « أبولو » منها بنوع خاص . ثم جاء أبو القاسم محمد كرو منذ أكثر من اثني عشر عاما يزيد الشابي تعريفا ، ويزيد شعره وأدبه ذيوعا ، بالمؤلفات النفيسة التي أصدرها عنه ، سواء مما وضعه هو نفسه ، أم مما نشره لمؤلفين آخرين في سلسلة « كتاب البعث » وغيرها من منشوراته .

ولم يقتصر فضل الاستاذ كرو على نشر أدب الشابي ، بل عني بالتعريف — في سلسلة « كتاب البعث » خاصة ، وفي ما كان ينشره في الصحف من مقالاته ودراساته — بأدباء تونسيين آخرين ، كالطاهر الحداد وغيره .

ولكن تونس ليست بالبلد الحديث العهد بالنهضة الفكرية ، فان لها تاريخا أدبيا حافلا بالمجد ، ولا سيما في عهود الفتح الاسلامي للاندلس وصقلية . وكانت القيروان فيها ، وسوسة ، وغيرهما من المدن التونسية ، من مراكز الثقافة العربية والاسلامية الكبرى في ذلك الحين .

وفي العصر الحاضر نبغ فيها عدد من أجلة الباحثين والمفكرين الذين كانوا استمرارا مرموقا لازهى عهود الثقافة العربية . نذكر من الاحياء منهم ، الذين نالوا شهرة عريضة في المغرب العربي وفي الاقطار المشرقية : حسن حسني عبد الوهاب ، ومحجوب بن ميلاد ، وعثمان الكعاك ، والشيخ الفاضل بن عاشور ، والطاهر الخميري ، وغيرهم . وكل من هؤلاء موسوعة علم وأدب وفضل ، سواء في حقول الثقافة الاسلامية ، أم في البحث التاريخي ، والادبي ، وفي البحث الفلسفي.

على ان افتقار بلدان المغرب العربي برمتها — ومنها تونس — الى الصحافة القوية ، والى دور النشر والتوزيع الكبيرة ، لم يسمح للاقلام المغربية بالبروز في المشرق كما برزت أقلام المشارقة في أقطار المغرب ، وذاع انتاجها عن طريق الصحافة القوية ، ودور النشر الكبيرة ، ذات التوزيع الواسع المدى . وهكذا ظل المغرب العربي يحس بالتخلف عن نهضة المشرق ، وبانه عالة على الادب المشرقي ، ولا مجال لبروز اديب منه الا اذا أتيح له ان يكتب في صحف المشرق الكبرى ، أو يصدر له كتاب عن دار نشر مشرقية . ولقد ترك هذا في نفوس الادباء في أقطار المغرب شعورا من المرارة ، ممزوجا بشيء من عقدة التخلف ، والنقمة ، أو التمرد . وهذا الشعور أصبح مع الايام دافعا الى خلق نهضة داخلية في كل بلد مغربي . فظهر بعض المجلات الادبية التي صارت تصل بالبريد الى أشخاص محدودين في بلدان المشرق ، وصار يستكتب لها أدباء مشرقيون الى جانب الادباء المغاربة . غير ان هذه المجلات لم تستطع حتى اليوم ان تجد لها مكانا في أسواق العالم العربي الى جانب الصحف والمجلات المشرقية ، كما تجد صحف المشرق الادبية مكانها الواسع في كل بلد مغربي .

وعقدة التخلف هذه ، مع الشعور بواجب التخلص منها — في تونس بشكل خاص — بخلق ادب تونسي محلي مستقل قوي ، تبرز بروزا واضحا في العدد الممتاز من مجلة « الفكر » الصادر في شهر اكتوبر من عام ١٩٦٥ ، بمناسبة دخول المجلة في عامها الحادي عشر ، وعلى الاخص في مقال للاستاذ عثمان الكعاك عنوانه « حول القصة التونسية » ، يقول فيه :

« ... فلنقلب قلمنا الى تونس العزيزة ، ولنر الاحداث التونسية ونسجلها ، يومئذ يولد الكاتب الاقاصيصي التونسي بأتم معاني الكلمة، وبحروف ضخمة كبيرة » . ثم يضيف :

« الجنين في البطن ، ولا شك ، ووجعات المخاض تملأ الجو بدويها ، ونخشى ان يكون الوليد زنيما لكثرة ما غازلنا من الاداب الفرنسية والشرقية والاندلسية . وقد ارتكبنا خيانات زوجية كثيرة نحو آدابنا القومية ، فيجب ان يستقيم سلوكنا ، ونقنع بزوجة شرعية واحدة في الاداب أيضا ... يجب ان نستقل ثقافيا كما استقللناسياسيا، وان تكون صلاتنا مع آداب الامم كما هي صلاتنا مع الامم ، عن طريق سفراء الادب : نقتبس ويقتبس عنا ، لا ننقل ونقلد في اتجاه واحد ، فتلك هي الحماية الادبية » .

ونجد هذا المعنى نفسه في افتتاحية عدد ديسمبر ١٩٦٥ من مجلة « الفكر » عينها ، فقد جاء فيها ما يلي : « ... ولا تزال رسائل الاعجاب والتقدير ترد علينا ، فيزداد شعورنا بالمسؤولية ، ويرسخ عزمنا على مواصلة الجهد حتى ... نهيىء أسباب الانتاج الاصيل والخلق الطريف لادبائنا الشبان ، وطلائع أجيالنا الصاعدة التي لم تقاس ضيم الاستعمار ، ولا عانت « اليتم » الثقافي الذي عرفه كثيرون من أبناء الجيل الحاضر ، بين مغرب مقطوع عن أصله ، ومشرق معزول عن عصره » . ثم : « بعملنا الدائب الصامت المجرد نعتقد أننا ساهمنا في استئصال الكثير من العقد النفسية المعرقلة للعمل الادبي ، وقضينا على الشك في قابلية طبيعتنا وتربتنا وأدمغتنا وقرائحنا على الابداع ، كغيرنا ، لا أكثر ولا أقل » . ثم تضيف الافتتاحية ما يلي : « تحدينا الشك والفشل والسخرية ، وتحدينا « التمشرق » ... وكنا ولم نزل نضم جهودنا الى جهود الامة جمعاء في معركتها المصيرية من اجل الوجود الافضل ، وخلق الانسان التونسي الجديد » .

هذه الاقوال وأمثالها ترينا الرغبة المتاصلة لدى التونسيين للتخلص من الاتباعية للمشرق في الحركة الادبية ، والثورة على التخلف الماضي ، لاجل خلق نهضة فكرية مغربية مستقلة متميزة، تفرض نفسهابقوةوتصميم.

الى جانب الصحافة الادبية المغربية ظهرت كتب أدبية عديدة ، على نفقة أصحابها في الغالب ، والقليل منها على حساب بعض المكتبات . ولكن هذه المؤلفات لم يكن حظها في أسواق المشرق أفضل من حظ الصحف والمجلات الفكرية . وهكذا ظل الفكر المغربي عامة — والتونسي من جملته — بعيدا ومحدود الانتشار الا في البيئات المحلية ، مما اضطر الكثير من الادباء المغاربة الى البحث عن ناشرين في المشرق لكي يتمكنوا عن طريقهم من الخروج من نطاق العزلة وشعور التخلف . وقد نجح بعضهم في ذلك ، ولم ينجح الاكثرون بعد .

وكانت تونس من أسبق الاقطار المغربية الى الاهتمام باصدارالمجلات الادبية لابراز نهضة الفكر التونسية بالمدى الممكن . وكان هذا يعتمد غالبا على الجهود الفردية في البداية ، ولهذا سقط الكثير من الصحف في مسيرة جهاده ، وعاش القليل على حساب أعصاب أصحابه بنضال شاق مضن .

ان هذا ينطبق على تونس كما ينطبق على سائر بلدان المغرب . ومن المجلات التي ظهرت في تونس في أزمنة مختلفة ، من عهد الاحتلال الفرنسي ، ثم من عهد الاستقلال القريب ، ثم اختفت تحت الحاح الظروف القاسية التي لم تكن تسمح بحياة مجلة ادبية غير مشرقية

نذكر : مجلة « الثريا » ـ ومجلة « الندوة » ، التي أصدرها محمد النيفر مدة ثلاث سنوات ، ومجلة « الزيتونة » ، التي أصدرتها رابطة القلم الجديد ـ ومجلة « الثقافة » ، التي أصدرها أبو القاسم محمد كرو ـ ومجلة « اللفات » ، التي أصدرها أحمد بلخوجة . وكل هذه المجلات كانت شهرية ، وكانت أعداد منها تصل الى بعض ادباء المشرق، وكان هؤلاء يشاركون في تحريرها أحيانا .

ولم يعش في تونس الى اليوم غير مجلة « الفكر » التي يصدرها محمد مزالي ، والتي هي اليوم النافذة الوحيدة التي يطل منها الكثير من أدباء المشرق والمغرب على انتاج الاقلام التونسية ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى الاسواق ، والى عامة القراء . وقد مضى على صدور هذه المجلة أحد عشر عاما ، وما تزال منبر الفكر التونسي المعاصر ، وملتقى أقلام اربابه ، وهي اليوم تتمتع بتشجيع الجهات الرسمية ورعايتها ، لضمان حياتها واستمرارها في خدمة النهضة الفكرية في تونس . وحين اتمت عامها العاشر أقامت لها اللجنة القومية الثقافية حفلة كبرى اشترك فيها وزير الثقافة ، ورئيس اللجنة الثقافية ،ووزير المالية والاقتصاد الوطني ، وكثير من الادباء والشعراء . وأقيمت الاحتفالات لتكريمها في صفاقس وغيرها من مدن الجمهورية التونسية . وفي هذه الاحتفالات معنى كبير من معاني الحفاظ على استقلال الادب التونسي الجديد .

ولقد حدثني الاخ محمد النيفر عن المصاعب التي لقيها في اصدار مجلة « الندوة » ، وكيف عانى الامرين حتى وصل بها الى العدد الاخير في عامها الثالث . وكانت في الواقع مجلة أدبية راقية ، تلتقي على صفحاتها اقلام من المغرب والمشرق . ومن أهم خدماتها الفكرية أنها كانت في كل عدد من أعدادها تقدم واحدا من أعلام الادب التونسي الاحياء ليتحدث عن نفسه وعن أدبه . ومن بين هؤلاء الاعلام الذين قدمتهم في أعدادها المختلفة : (حسن حسني عبد الوهاب ـ عثمان الكعاك ـ محمد الحليوي ـ محمود المسعدي ـ الهادي العبيدي ـ محمد الزمرلي ـ ومحمد العربي الكبادي) .

كذلك كان الاخ محمد مزالي قد حدثني من قبل عن جهاده القاسي في اصدار مجلة « الفكر » ، ومحاولاته الجاهدة لايصالها الى الاسواق الشرقية والغربية . غير أنه استطاع ، رغم كل الصعاب والعراقيل ، ان يستمر في اصدارها الى اليوم .

أما ابو القاسم كرو ـ وهو أوسع أدباء تونس اليوم شهرة في العالم العربي بأسره ـ فانه منذ تخرجه من دار المعلمين العالية في بغداد عام ١٩٥١ عاد الى تونس واشتغل بالتأليف ، وأنشأ مكتبة ودار نشر صدرت عنها عدة مؤلفات ، ومن أهمها سلسلة كتب صغيرة دعاها باسم « كتاب البعث » كانت تضعها أقلام تونسية . وقد صدر من هذه السلسلة عدة أجزاء ثم توقفت عن الصدور . وكان أغلب توزيعها في الاسواق التونسية ، ولكن بعض اجزائها قد وصل الى مختلف الاسواق في المشرق والمغرب . ولكن عمل أبي القاسم لم يكن سهلا ، بل لقي فيه ـ وما زال يلاقي ـ كثيرا من المصاعب .

أما مؤلفات الاستاذ كرو فقد لقيت رواجا كبيرا في البلدان العربية بأسرها ، وكان أوسعها انتشارا كتابه « حياة الشابي وشعره » الذي أصبح أهم المصادر لمن يدرسون شعر الشابي ، وسيرة حياته . يضاف الى هذا الكتاب أيضا كتابه « كفاح الشابي » . أما أول كتاب أصدره كرو بعد تخرجه من بغداد ، فهو « مارس شهر الدماء والدموع في المغرب العربي » وكان هذا الكتيب في الاصل محاضرة القاها ابو القاسم في بغداد ، ثم نشرها في كتيب صدر في بغداد نفسها قبل عودة المؤلف الى تونس .

الى جانب المؤلفات التونسية التي كان ابو القاسم كرو ينشرها ، كانت هناك مكتبات أخرى تقوم أحيانا بنشر بعض الكتب التونسية ، ولكن مدى انتشار هذه الكتب ظل دائما محدودا ، فلم يتح لها الانتشار الواسع في الخارج .

من هذه الكتب التي نشرت في تونس وعرفت في أوساط الادب والاستشراق خارج المحيط التونسي نذكر بنوع خاص مسرحية «السد» لمحمود المسعدي ، التي ظهرت عام ١٩٥٥ عن شركة النشر لشمال افريقيا ، وقد لقيت صدى غير قليل على اقلام النقاد العرب والمستشرقين . وممن تعرضوا لها بالتعريف والنقد الدكتور طه حسين وبعض أدباء مصر الاخرين . وهي مسرحية رمزية ذات قيمة أدبية جليلة.

على أن كل هذه المحاولات في نشر الكتب واصدار المجلات الادبية لم تستطع ـ لظروف عديدة ، اهمها طغيان ادب المشرق وصحفه ووفرة دور النشر فيه،وسعة مدى انتشاره ، وشهرة أربابه الواسعة ـ ان تبرز الادب التونسي ابرازا كافيا ، وتجعله يؤثر في غيره بمقدار تأثره بغيره . ومن هنا ـ من حاجة الاديب التونسي الى المشاركة الفعالة في نهضة الفكر العربي عامة ، والى اسماع صوته بوضوح كاف الى الاخرين ، وشعوره بأن له من المقدرة والاستعداد الطبيعي ما يسمح له بذلك ـ كان لا بد للدولة من أن تقوم بعمل جدي من جانبها لكي تعطي الاديب التونسي الثقة بنفسه اولا ، ولكي تجعل النهضة الادبية في تونس تؤتي ثمارها ثانيا . وكانت كتابة الدولة للشؤون الثقافية هي الراعي الذي يتولى المهمة . ذلك لان الجهود الفردية تظل دائما عاجزة عن الوصول الى ما تريد ، ولكن مساندة الدولة وحمايتها وتشجيعها كفيلة بان تخلق الجو المناسب ، والمجال الرحب لانطلاق الاقلام . والنهضة العجيبة الشاملة في تونس اليوم لا يمكن ان تكون كاملة دون ان ترافقها نهضة فكرية قوية متطورة . ثم ان بلدا ، رئيسه خطيب وأديب واسع الثقافة كالحبيب بورقيبة ، لا يرضى لنهضته الادبية بالتخلف والانطواء على نفسه . ونحن نعرف الشيء الكثير من حب الرئيس بورقيبة للادب والشعر ، ومن حرصه على الالتقاء بالادباء والشعراء والاستماع اليهم ، ومن تشجيعه الشخصي لهم بالاوسمة والعناية الكريمة ، ثم من مشاركته هو نفسه في الحياة الفكرية من قبل ان يصبح رئيسا للجمهورية التونسية .

بدأت عناية وزارة الثقافة التونسية بالحركة الادبية بان تأسست فيها اللجنة القومية للشؤون الثقافية ، برئاسة الامين الشابي ـ وزير المعارف السابق ، وشقيق الشاعر أبي القاسم الشابي ـ وعن هذه اللجنة انبثقت لجان ثقافية في سائر الولايات التونسية ، مهمتهاتنشيط الحركة الفكرية والفنية بسائر وجوهها وأشكالها ، باقامة المهرجانات الخطابية والشعرية ، والمواسم الثقافية بالندوات والمحاضرات ، وتأليف الفرق التمثيلية ، ونشر الثقافة المسرحية ، واصدار النشرات والمجلات الثقافية ، وتشجيع الفنون الجميلة بمختلف انواعها .

أما مصادر تمويل هذه اللجان الثقافية فتعتمد على المخصصات المرصدة لها في وزارة الثقافة ، وفي موازنة الولاية ، وعلى معونة البلدية ،وعلى ما يأتيها من دخل الحفلات المسرحية والسينمائية والفنية التي تقيمها . وقد استطاعت هذه اللجان ان تخلق فعلا نشاطات ثقافية واسعة ، وان تستحث همم الكتاب والشعراء الى العمل المنتج ، ولكن في نطاق المحاضرات والمقالات في الصحف ، والاشتراك في الندوات الادبية ، والمهرجانات الخطابية والشعرية . وهذا كله يظل ضمن حدود الاقليم او حدود الجمهورية ، لا يتجاوزه الى الخارج .

والى جانب اللجان الثقافية ونشاطاتها المحلية هناك الاذاعة والتلفزيون ، وفيهما مجال واسع للانتاج الفكري الاوسع مدى ،والكسب المادي للاديب لقاء هذا الانتاج المحدود .

وكذلك تعمل وزارة الثقافة واللجنة الثقافية على دعوة بعض أدباء المشرق والمغرب المعروفين ، لتتيح الفرصة للادباء التونسيين للقائهم وللتبادل الفكري معهم . وممن دعتهم الوزارة أذكر : ميخائيل نعيمه ، ونزار قباني ، وصاحب هذه السطور .

غير ان من أهم ما قامت به الوزارة لخلق النهضة الفكرية في

تونس ، وابراز النشاطات الادبية ، هو تأسيسها دار النشر التونسية التي يديرها الان الدكتور الحبيب بلخوجه . وقد استطاعت هذه الدار ان تقوم بنشر عدد كبير من المؤلفات الادبية والعلمية والتاريخية ، أغلبها من انتاج الاقلام التونسية ، وبعضها من انتاج أقلام عربية اخرى، وعلى الاخص من الجزائر والمغرب . وهي ماضية في سبيلها هذا لابراز الاقلام التونسية وتشجيعها . وتحرص الدار على ان تخرج الكتاب التونسي اخراجا أنيقا الى أقصى حد ممكن .

ومن أهم المؤلفات والمراجع الكبرى التي صدرت عن هذه الدار كتاب « اتحاف اهل الزمان » لابن أبي الضياف ، ويقع في سبعة اجزاء ضخمة . وهو من المراجع المهمة في تاريخ عهد البايات في تونس .

ولبيان أثر دار النشر القومية ووزارة الثقافة في الحياة الادبية في تونس أذكر في ما يلي عددا من المؤلفات التي صدرت عن الوزارة وعن الدار في الاونة الاخيرة ، مما اتيح لي شخصيا أن اطلع عليه ، اضافة الى كتاب « اتحاف اهل الزمان » المذكور آنفا :

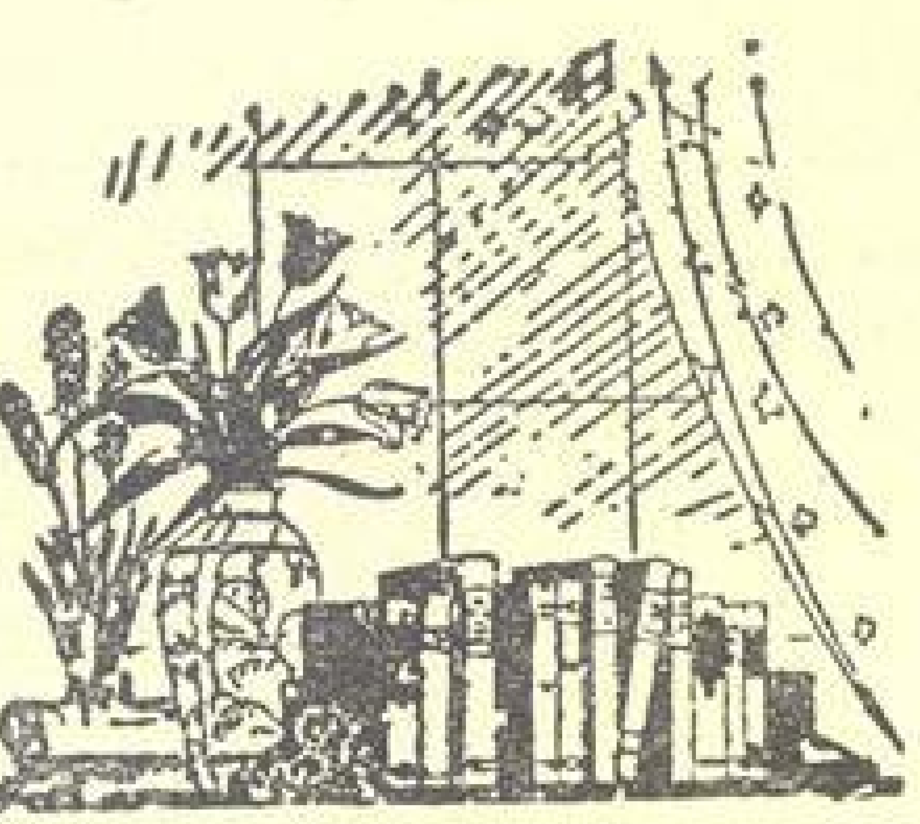
١ ـ الادب الفارسي في العصر الغزنوي ـ للدكتور علي الشابي .
٢ ـ بين الآثار التونسية ـ لسليمان مصطفى زبيس .
٣ ـ ثورة علي بن غذاهم ـ لجان غانياج،ترجمة لجنة من الوزارة.
٤ ـ ديوان «أغاني الحياة» لابي القاسم الشابي ، طبعةثانيةكاملة.
٥ ـ ديوان « بقايا شباب » لمحمد المرزوقي .
٦ ـ ديوان « تحت ظلال الزيتون » لمفدي زكريا .
٧ ـ ديوان « ضياء » للصادق مازيغ .
٨ ـ الخيال الشعري عند العرب لابي القاسم الشابي .
٩ ـ مذكرات ابي القاسم الشابي .
١٠ ـ بين عصرين للصادق مازيغ .
١١ ـ بودوده مات ـ لمحمد رشاد الحمزاوي .
١٢ ـ دخان ـ للطاهر وطار .
١٣ ـ قصر الريح ، وتمثيليات أخرى لمصطفى الفارسي .
١٤ ـ مذكرات المنفى لمحمود بيرم التونسي .
١٥ ـ الورغي لمحمد الحبيب بلخوجه .
١٦ ـ الباجي المسعودي لمحسن بنحميده .

هذا الى عدد آخر من المؤلفات مما لم يتح لي الاطلاع عليه .

والى جانب دار النشر اهتمت وزارة الثقافة بانشاء دار قومية للتوزيع ، يديرها اليوم الوزير السابق الاستاذ عزوز الرباعي ، لتنظيم توزيع الكتاب التونسي في الداخل والخارج . وقد انحصر توزيع الكتب كله في هذه المؤسسة التي لم يمض زمن طويل على تأسيسها ، سواء منه ما يستورد من الكتب من الخارج لتوزيعه في تونس ، وما يصدر في تونس لتوزيعه في الخارج . ولان هذه المؤسسة حديثة العهد ولم يتح لها بعد تنظيم اعمال الاستيراد والتصدير كما يجب ، ما زالت تواجهها صعوبات غير قليلة ، وعلى الاخص في استيراد الكتب الخارجية ، وتسوية معاملات الكتب التي كانت قد استوردت قبل تأسيسها ، حتى لنكاد نقول أن الكثير جدا من الكتب التي ظهرت خلال العام الاخير في مصر ولبنان وغيرهما من الاقطار العربية لم يصل بعد الى الاسواق التونسية . ولهذا نامل ان تزول الصعوبات ليتم التبادل الفكري بين تونس والعالم العربي كله على أوسع نطاق ممكن .

خلال المدة القصيرة التي قضيتها في تونس ، سواء في الرحلة الاولى أم في الثانية ، أتيح لي ان أعرف عددا غير قليل من أدبائها وشعرائها .وكنت من قبل أعرف اثنين فقط معرفة شخصية ، هما : محمد مزالي ، صاحب مجلة « الفكر » الذي التقيت به لاول مرة في مؤتمر الادباء العرب الرابع في الكويت ، عام ١٩٥٨ ، ثم في المؤتمر الدولي للادب العربي المعاصر ، في روما عام ١٩٦١ ، وابو القاسم محمد كرو ، الذي عرفته عام ١٩٥١ حين كان طالبا في بغداد ، وقد جاء لزيارة الاردن ، مع فوج من طلاب دار المعلمين العالية حينذاك .

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر

يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

وكانت بيني وبين ثلاثة آخرين منهم مراسلات سابقة ، وهم : محمد النيفر صاحب مجلة « الندوة » والشاذلي زوكار من رابطة القلم الجديد ومن محرري مجلة « الزيتونة » ومحمود بلخوجه صاحب مجلة « اللفات » ، وقد كنت أكتب لهذه الصحف أحيانا ، استجابة لرغبات هؤلاء الاخوان ، ولواجب التعاون في سبيل وحدة الفكر العربي .

وكنت أقرأ في الصحف والمجلات التونسية التي كانت تصل الي أبحاثا وأقاصيص وشعرا لادباء تونسيين متعددين ، كان منهم : عثمان الكعاك ، وحسن حسني عبدالوهاب ، والعربي صمادح ، ومحمد العروسي المطوي ، ومنور صمادح ، وغيرهم . ثم أتيح لي أن أعرف بعض هؤلاء ، والكثيرين غيرهم من الشعراء والكتاب والباحثين معرفة شخصية ، سواء في مهرجان الشابي ، ومهرجان صفاقس الشعري ، وفي الجولة التي قمت بها في مختلف الولايات التونسية ، وكذلك في الندوات التي كانت تعقد في منزل الشاعر هلال ناجي القائم باعمال السفارة العراقية، ومنزل الشاعر فاضل خلف الملحق الصحفي الكويتي وغيرهما في مدينة تونس ، والتي كانت مناسبات طيبة للتبادل الفكري بيني وبين هذه المجموعة من الادباء التونسيين .

والواقع انني لا أستطيع ان اعدد ادباء تونس وشعراءها اليوم ، فهم أكثر من ان أحصيهم . وحسبك ان تقرأ العدد الممتاز من مجلة « الفكر » الذي صدر في شهر اكتوبر عام ١٩٦٥ ، بمناسبة دخول المجلة في عامها الحادي عشر ، لترى فيه أسماء خمسين كاتبا وشاعرا، ليسوا كل كتاب تونس وشعرائها ، ولكنهم يمثلون نخبة ممتازة منهم . أما شيخ شعراء تونس اليوم فهو مصطفى خريِّف ، وبين أبرز الشعراء الشبان لمع اسم : احمد اللغماني ، ومنور صمادح ، والعروسي المطوي، وعبدالعزيز بنجدو ، والانسة زبيده بشير ، وغيرهم .

وتختلف اتجاهات الشعراء في تونس : فهناك طائفة تنظم الشعر على الطريقة المستحدثة التي يدعونها « الشعر الحر » ، وعلى رأس هذه الطائفة العروسي المطوي ، وهو من أكبر مشجعيها ودعاتها .وهناك فئة محافظة على الشعر العربي الاصيل ، ترى في الشعر المستحدث بدعة مخربة . وبعض الشعراء يتارجحون أحيانا بين الطائفتين خشية من ان يرميهم البعض بالرجعية والجمود ، ويرميهم البعض الاخر بتهديم البنيان الشعري .

وهناك جمعيات ، او اندية ، للشعر ، والقصة ، والمسرح ، ينتسب اليها الكثير من الادباء والشعراء والمؤلفين .

وهكذا لا تختلف النهضة الادبية هناك عنها في المشرق ، وفيها حيوية كثيرة كما في المشرق ، ومجالس الادباء هناك عامرة بالنقاش ، وتصارع الافكار والاراء والمذاهب ، وكل هذا يبشر بنهضة حية ، تتهيأ لتاخذ مكانها الصحيح قريبا في مسيرة النهضة الادبية العربية الشاملة. والذي أعتقده ان الدعوة القائمة الآن لوحدة المغرب العربي الكبير ستتيح لنا ، في فرصة قريبة ، ان نشهد نهضة فكرية مغربية السمات والالوان ، تبعث نشاطا جديدا في دم الفكر العربي ، ونرى شمس الفكر العربي الجديد تطلع من المغرب هذه المرة ، وسيكون فيها لتونس نصيب كبير ملموس .

عمان — عيسى الناعوري

•

لقاء مع الاستاذ فؤاد الريس

يشغل الاستاذ فؤاد الريس ، في هذا الحديث جانبا خطيرا ، أحببت ان أجره اليه ، واحادثه فيه ، دون ان ينتبه الى ما أبيته في نفسي لكثير من الادباء ، فانا كلما عزمت على دراسة موضوعات جليلة تمس كيان الادب ، وتلفت النظر الى الدراسة الادبية الجادة ، تحايلت بشتى الطرق على جر كبار الكتاب ، ووقفت واياهم أمام القراء ، عسى ان نصل الى ما يحمد ، ونجني ما يعود على الفصحى واهلها ، بما تشتهي وتريد ...

على أن المستغرب في هذا الحديث ، انني قصدت به مواجهة رجل رأيته مرة ، فاحببت فيه الهدوء والدعة ودقة الحديث ، وأراه في كل شهر ، يطل بوجهه محييا من : « قافلة الزيت » وموجها ساحرا ، يمسح جراحات كلمى ، أصماها الجهل ، وخدرها التهافت والاندفاع والوقوف في منتصف الطريق ، للسؤال والاستجداء ...

ولعلني لا أكون مغاليا ان قلت : انني أردت ان انقل الجو الذي يعيش فيه أستاذ يقف على منبر من منابر التوجيه ، يقدر كل كلمة ، ويزن كل جملة بميزان حساس دقيق ، الى جو يسود حياتنا الادبية ، ويسمها بميسم الاكفهرار ، ويطبعها بطابع الفقر والعوز ...

أردت في هذا الحديث القيم ، ان أدل على جهد هذا الرجل المتواضع الذي ينظر الى طريق الادب ، فلا يجد له نهاية ، وينظر الى نفسه ، فيجد ان بينه وبين من ساروا سيره أشواطا طويلة ، وهو من هو : فضلا ، وقلما ، وامتاعا ...

والواقع ان الاستاذ فؤاد الريس ، قد أعطانا في هذا الحديث ثروة طائلة ، وأفاض علينا من علمه ما يرسم الطريق ، ويخطط لعشرات السنين التي يحيا فيها الادب ، أو تكتب له فيها حياة الرخاء واليسر ، يحدوه ايمان عميق بالنجاح ، ووثوق بالغلبة ، وتفوق على كل الاداب..

ولا يخامر المطالع الجاد ، او الدارس الواعي ، أي شك ، في مدى الجهد الذي بذله الاستاذ فؤاد الريس ، وهو يعطينا هذه الدروس ، التي أعتقد أنه تصبب عرقا وهو يجيب عليها، خوف ان تبدر منه بادرة، تسيء الى قلمه او تحسب عليه ... فهو ينبهنا الى قيمة العمل الادبي، وموقف أسرة تحرير « المجلة » منه ، وان بدا في بعض المواقف أنه يفر حين أمسك به ، او أضيق عليه الخناق ، لوعورة الاجابة ، أو أنه يخشى ان يحصر في مكان ، لا يستطيع النجاة منه ، او اللجوء الى جواب قد لا أرتضيه ، أو لا يحسده عليه القراء ...

ولا أعدو جانب الحق ، اذا أنا اعترفت ، انني كنت في كثير من اسئلتي ، اتعمد ان يضع الاستاذ الريس النقط فوق الحروف ، لا أن يقول كلاما للاستهلاك ، لا يحسب له او عليه .. بل الواقع انني كنت أعتمد في اسئلتي له على الحصر ، بحيث لا يستطيع أن يروغ مني ، او ان يفلت هو من أمامي ، أو يفر من بين يدي ...

والاستاذ الريس ، مع كل هذا ، أجاب اجابة شافية ، تعد نموذجا ومثلا ، ان نحن وضعناها موضع المفاضلة ، أو على الصعيد السوي الذي يعيش فيه في واقع الادب ومع الادباء ...

فمما يزيد في نظري ، ويجعل لهذا الحديث قيمة ان الاستاذ الريس ، بعيد عن الاضواء وان كنا قد عرفناه في سنيه الاخيرة في مجلة « قافلة الزيت » كاتبا ناعم الملمس ، ألمعي التفكير ، أشيب اليراعة في نفثاته وتوجيهاته ولمساته ، لم يتهافت هنا أو هناك ، أو يعوم مع العائمين من ضلال الادب ، في بحر التطفيل أو تجري رجلاه في كتائب المتطفلين الذين يهمهم النفع العاجل ولو على حساب الكرماء، وان تكلفوا في ذلك التنقل من مكان الى مكان ، أو المجاملة أنى تكون.!!

وحسبي ، وحسب القارىء ، ان أقدم له رجلا ، يقدر الكلام ، ويصنع الاقلام ، ويصطلي كل يوم برسائل القراء والكتاب الكرام ، وهو جديد بالتقدمة ، قمين بالقراءة ، حري بأن يكون طلعة بين الحريصين على سيادة القلم ، المعزين لدولة البيان ...

– في أي المدارس تعلمتم ، وهل العلم في نظركم كاف لتكوين شخصية المرء ؟

– العلم الذي يتلقاهالفرد في أحد المعاهد لا يكون جزءا منشخصيته ما لم يتفاعل في بوتقة الفكر الخلاق مع كثير من الخبرات وشذرات

المعرفة المستقاة من مختلف مدارج الحياة ودروبها . حتى قال بعضهم ان المرء يخلق العلم ولا يأخذه من غيره ، ولعل في هذا اشارة الى المجهود الذي يبذله الفرد في الحصول على العلم والوصول الى المعرفة.

وعندما ينظر احدنا الى أيامه الخوالي مستعيدا ما علق بذهنه من علم في وقت تركه المدرسة يدرك مقدار ما كان عليه من جهل في تلك الفترة التي يبدأ فيها بالتحول بين مرحلتين هامتين من مراحل حياته مرحلة تلقي العلم ومرحلة خلقه والتحكم به وتطبيق اسسه ، او قل مرحلة التتلمذ ومرحلة الاستقلال الذهني الذي يبدأ فيها المرء حياته العلمية الجديدة التي يكون فيها التلميذ والمعلم شخصا واحدا .

ولعلني في هذه الاجابة خرجت قليلا عن موضوع السؤال .. لقد تلقيت العلم في الجامعة الوطنية في عاليه ، لبنان ، وبدأ حب الادب يدب في عروقي في سني الشباب الاولى . ورست قواعد هذا الحب نهائيا اثناء المحاضرات الطويلة الشائقة التي كان المربي الكبير المرحوم مارون عبود يلقيها علينا في فصول الادب واللغة العربية . وكان رحمه الله حجة في الادب العربي والنقد الادبي وهو علم لا يحتاج الى تعريف. وبعد هذه الفترة انطلقت في طريق تختلف كل الاختلاف عن الطريق الاولى ، اذ اتجهت اتجاها علميا ودرست هندسة الكهرباء ، ولكن الحنين الى الادب عاد يخالجني فعدت الى ميدان الادب واشتغلت في الكتابة والصحافة الادبية . وما لم اتعلمه على مقاعد الدراسة عن هذه المواضيع جهدت في الوصول اليه عن طريق المطالعات الكثيرة والدراسات والابحاث . ولا يفوتني ابدا ان اذكر انني في بداية الطريق ، طريق المعرفة الطويل ، انظر اليه فلا أرى له نهاية ، وكل ما يبدو امامي آلاف ممن سبقوني اشواطا طويلة قد لا يكون لي امل في اللحاق بمواكبهم . ولكن يكفيني الاقتداء بهم ضمن طاقتي الشخصية وامكاناتي المحدودة .

ـ ما هو العمل الادبي الاول الذي دخلتم به الحياة ؟

ـ لقد دخلت باب الادب عن طريق الهواية ، بكتابة مقالات ادبية نشرت في بعض الصحف والمجلات ، ولم احترف الادب او الصحافة بالمعنى الصحيح قبل عملي في « قافلة الزيت » التي كرست كل جهودي ونشاطي خلال السنوات العشر الماضية كعضو عامل فيها .

ـ بماذا تسهمون في هذه المجلة ؟

ـ قافلة الزيت تصدر عن ادارة العلاقات العامة بشركة الزيت العربية الامريكية (ارامكو) الظهران ، ويرئس تحريرها الاديب السعودي المعروف الاستاذ سيف الدين عاشور . اما انا ، فبحكم عملي كرئيس لقسم الصحافة والنشر العربي ، فلي اشراف اداري على القافلة ضمن اعمالي الاخرى ، وان كنت اساهم في اخراجها وتحرير مقالات فيها كلما سنحت الظروف بذلك .

ـ ما هي الموضوعات التي تعجبكم في القافلة ؟

ـ ان الاجابة على هذا السؤال بالتحديد في غاية الصعوبة . وجميع المواضيع التي تظهر على صفحات القافلة مدروسة دراسة وافية ومحددة بشكل دقيق بحيث تجمع نسبا معينة من العلم والادب والتاريخ والصناعة والاستطلاعات التي تظهر نواحي صناعة الزيت ومظاهر التقدم والعمران في المملكة العربية السعودية . ونحن دائما نراجع محتويات القافلة بشكل واف لنتأكد من انها تسير ضمن المخطط العام وتجمع بين الفائدة والمتعة والذوق الفني الرفيع . ولذا يمكن ان اقول بأن كل محتويات القافلة عزيز الى نفسي والى انفس اعضاء اسرة تحريرها كافة.

ـ هل لكم اتجاه معين في نشركم وقبولكم لهذه الموضوعات ؟

ـ المبدأ الاول الذي تضعه اسرة التحرير امام نواظرها في اختيارها المواد الواردة اليها الفائدة العامة والجدة والطرافة ، وهي لا تنظر الى العمل الادبي الوارد اليها الا من وجهة موضوعية بحتة . ونحن نحاول قدر الامكان الابتعاد عن المواضيع الجدلية او التي تتنافى وانظمة المطبوعات في المملكة العربية السعودية او الشريعة الاسلامية او التقاليد العربية الموروثة . كما أحب ان اضيف ان اهم ما نتحاشاه الامور السياسية والادب العاطفي المكشوف الذي يمجه الذوق والذي بدأ يتكاثر ويروج في اسواق الادب والتاليف .

ـ من هو أهم كاتب في نظركم ؟

ـ اهم كاتب في نظري هو الكاتب الذي يكتب بصدق واخلاص ، والذي يخلق أفكارا جديدة ويجمع بين الفن والبلاغة والعلم . والكاتب الذي احترمه هو الكاتب الذي يدرس موضوعه جيدا ويجري عليه أبحاثا وافية مهما اقتضى ذلك من جهد ووقت حتى يكتمل ، ويخطط لافكاره قبل ان يشحذ قلمه ، وهو الذي يضع الكيف قبل الكم ، ويعرف ان القارىء ليس ادنى منه معرفة وان هذا القارىء يريد ان يخرج من مطالعة المقال او الكتاب بفكرة . وأحب كاتب الى نفسي ذلك الذي يحافظ بكل ما أوتي من مقدرة على تراثنا العربي ويحاول ان يتمشى مع القول العربي المأثور « خير الكلام ما قل ودل » وخاصة في عصر السرعة هذا الذي نعيشه .

واذا كان لا بد من ذكر اسماء ، فانا اذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الاديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد الذي اثرى المكتبة العربية بمؤلفات تحمل من العلم اعمه وأجوده ومن الفن أجمله ، والاديب الكبير المرحوم مارون عبود الذي علمنا كيف يمكن ان نقرب الادب الراقي من المستوى الشعبي العام دون ان نخفض من مستوى هذا الادب وهو أفضل من يمكن ان يدرسه بعض الادباء الشبان والشعراء الذين حاولوا التجديد فكادوا يخدشون مرآة الفصاحة والبيان . ومن ادباء الدرجة الاولى لدينا الدكتور طه حسين الذي ارسى للادب قواعد علمية ، وهو مدرسة بحد ذاته وكذلك الكاتب الفيلسوف ميخائيل نعيمة واعضاء الرابطة القلمية وغيرهم كثيرون . ومن الادباء الاصدقاء الذين ينالون اعجابي واحترامي الشخصي عدد كبير لا يتسع المقام لذكر اسمائهم جميعا هنا كامثال الاستاذ محمد عبدالغني حسن والدكتور الحوفي والدكتور محمد صبري والاستاذ وديع فلسطين والاستاذ محمد صالح

ابراهيم والاستاذ لقمان يونس وعدد من كتاب المملكة العربية السعودية وغيرهم كثيرون لا يمكن ذكرهم جميعا هنا لضيق المقام . وقد ذكرت هذه الاسماء على سبيل المثال لا الحصر ..

ـ لو قدر لقافلة الزيت ان تغزو السوق الادبية بثمن .. هل تعتقدون بنجاحها ؟

ـ اذا كان النجاح هنا بمعنى النجاح المادي المرتكز على الاعلان والتوزيع فليس بامكاني اعطاء رأي صحيح لان التجربة اكبر برهان ، كما هو معروف ، اما اذا كان هذا النجاح مرتكزا على كفاءة القافلة واكتمالها من حيث المادة والاخراج فانا لا اشك في هذا مطلقا .. وفيما لو تقرر مثل هذا الامر المستبعد الحصول ، وجب ادخال تعديلات طفيفة على بعض المواد واضافة ابواب جديدة . ونحن غالبا ما نتلقى دراهم او اسئلة عن قيمة الاشتراك .. اننا نعيد الدراهم طبعا وانما هذا دليل على قبول الجمهور للقافلة ، ولكن لا يفوتنا يا استاذ زيان ان نذكر ان سوق الادب الراقي اصبحت مهددة بالبوار في عالمنا العربي ، فهل سمعت بصاحب مجلة ادبية أثرى من عمله ؟ اذا كنت سمعت فاسأل الاستاذ الكبير البير اديب الذي يصدر مجلة ادبية من ارقى المجلات وانجحها ، اسأله عن حاصل ثروته خلال ربع قرن وتعرف الجواب .

ـ هل تؤدي المجلات التي تظهر في العالم العربي تباعا الغرض من اخراجها ؟

ـ المعروف طبعا ان لكل مجلة هدفا واسلوبا يبرر بقاءها ، او هذا ما يجب ان يكون . ولمعرفة الاجابة على سؤالكم يجب ان ندرس اهداف كل مجلة ادبية ونقارن بين هذه الاهداف وبين النتائج التي وصلت اليها هذه المجلات . فهناك مثلا المجلات التي تسعى لنشر الادب الراقي وهناك التي تسعى وراء هدف سياسي معين بنشر مقالات تثبت نظريات خاصة ، وهناك التي تسعى للحفاظ على تراث العرب الادبي والفكري ، وهناك التي تنشر الشعر الحديث بغية توسيع الاستفادة منه ، وهناك مجلات تسعى وراء نشر اللغات الاقليمية وغيرها كثير لا مجال لحصره هنا . الاجابة على هذا السؤال اذن تحتاج الى دراسات واحصاءات ليست متوفرة لدي .

ـ ان على رؤساء تحرير هذه المجلات واجبا ، فما هو ؟

ـ ان الواجب الاول امام رئيس تحرير أي صحيفة الخدمة العامة التي عليه ان يضعها دائما قبل المصلحة المادية . والاخلاص في العمل ضرورة كما ان ارضاء الضمير ضرورة اخرى . وعلى رؤساء التحرير ، بحكم تأثيرهم على الرأي العام ، واجب قيادي يجب عدم الاستهانة به وعدم استغلاله الا فيما يرضى عنه الضمير والمصلحة العامة .

ـ هل تعجبكم الاقلام التي تحتل صدارة هذه المجلات ؟

ـ انني شخصيا تعودت الا أنظر الى العمل الادبي من حيث اسم الكاتب او شهرته وانما من حيث قيمته الفكرية والفنية . واذا صح ان نغير السؤال قليلا اقول ان المجلات الادبية الراقية تحمل بين طياتها الشيء الكثير من المادة الدسمة التي ينتظر القارىء ان يراها في مثل هذه المجلات .

ـ ما هو أحساسكم بالنسبة لرد مقال الى صاحبه ؟

ـ في العادة ينظر الى المقال المرسل الى أي صحيفة أو مجلة من حيث الموضوع والقيمة الفنية او الفكرية المتوخاة منه ، ولذا عندما يقبل مقال او يعاد الى كاتبه فالمسألة تكون مجرد تقويم للعمل الادبي من حيث مناسبته للنشر في مكان معين او عدم مناسبته ، ولا مجال لادخال العواطف والاحساسات في هذه المسألة .

ـ بماذا تنصحون الكتاب الذين يبعثون اليكم بانتاجكم او تطلبونه منهم ؟

ـ نصيحتي لكل كاتب في كل مجال هي نصيحتي لنفسي أيضا عندما اكتب ، الاجادة في العمل مهما اقتضى ذلك من وقت وجهد . اذ ان الحرف المكتوب ذو قيمة واهمية . فالقارىء يبذل وقتا في قراءة ما تقدمه اليه المجلات والكتب وله على الكاتب حق يجب الا يبخسه اياه . انه يريد ان يقرأ ما يمتعه ويزيده علما ومعرفة ، فلنعطه ما يريد ، ولنحترم فيه هذه الرغبة فلا نضيع وقته بكلام كثير لا طائل تحته او بآراء شخصية غير مرتكزة على علم وتجربة ، او بأفكار نكتبها قاصدين منها مصلحة معينة خدمة لميل او مشرب .. لنترك كل هذا جانبا ونعطه البحث العلمي المدروس طاهرا نقيا من كل شائبة .

القاهرة — ابو طالب زيان

●

قصة ((الاديب)) قصيرة

تنادى ادباء العرب ، في كل مدينة وقطر ، في المواطن والمهاجر، للاحتفال بتكريم اديب عانى الادب ، وحمله على كتفيه طوال خمسة وعشرين عاما ، مشقة وعناء ، وهو الاستاذ البير اديب ، صاحب مجلة ((الاديب)) في بيروت .

وليس من الامور اليسيرة أو المألوفة على الاقل في شرقنا العربي ، وربما في الشرق قاطبة ، ان يرابط ويصابر في ساحة الادب ، أديب، ينهض باعباء عمل نشري جدي فادح ، منفردا ، لا تثنيه صعاب ، ولا تحوله عن عناده مشوقات الارزاق الميسورة، ونداءات الكروم على الدروب.

خلال خمسة وعشرين عاما من تاريخ النشاطات الادبية في بلاد العرب ظهرت مئات المجلات الثقافية ، وتوارت مئات . منها ما عاش خمسا وعشرا ، فكان جبارا عنيدا ، ومنها ما ثابر اربعا او ثلاثا ، فكان مناطحا مكابرا ، ومنها ما عاش سنة قمرية بين اول رمضان وآخر شعبان ، فقيل اتم الحول ، فبسملوا له ثم حوقلوا . ومنها ما تصرم بين شهر وشهر، وصباح ومساء ، كطيف تداولته انوار وظلال ثم توارى.

ومنها كذلك ما بدل من اهابه ، وغير من قبلة محرابه شكلا ومضمونا ، وطولا وعرضا ، وأصلا وفصلا من الوسط الى اليمين ،ومن اليمين الى اليسار ، ومن فوق الى تحت ومن أدب صرف الى ادب ممزوج بالسياسة ، ومن سياسة صلبة كالسيوف الى فن طري كهدب العيون . وزخرت مجلات الثقافة بكواكب السياسة ، والشاشة ، حتى اصبحت مجلة كالاديب ، على وجه الكرة العربية ، نموذجا لانحدار التطور ، وظاهرة عجيبة من ظواهر الثبات المجوج والصبر المكروه والحرون الملعون .

وعندما اكتشف بعض الرفاق عن طريق الصدفة ، أن ثمة على الشاطىء اللبناني مجلة تدعى ((الاديب)) وصاحبا لها يدعى ((البير اديب)) أذهل الاكتشاف جمهور الناس ، فاقبل حوله المتطفلون والمصورون ، والمشفقون على العتيق من الجديد او على الجديد من العتيق . واحاط به جمهور من الخبراء ، والاطباء والوسطاء كأنه هبط على التو ، في الاطلسي بمظلة تحمل جيمني ١ .

وعندما سأله الصحافيون : حدثنا عن هذا الصندوق العجيب الذي حملك في الفضاء .. مع جميل الكلام والهواء ، ربع قرن طويل . حدثنا .. عن انعدام الوزن لكثرة الاقتصار ، على قلة الغذاء ...اجاب: ذرعت الفضاء بالطول وبالعرض ، فلم أر أعجب من سكان هذه الارض .

فصفقوا طويلا للتصريح . وأغلب الظن ان المحتفلين سيحملون رائد الهواء ((البير اديب)) على الاكتاف .. وأما مركبة ((الاديب)) ، فسيتركونها تغرق ..

المهم انهم احتفلوا ، يا سيدي .
وليس المهم ان يعرفوا لماذا ؟!
نعيما .

مجلة ((المعرفة)) ـ دمشق — فؤاد الشايب
رئيس تحرير مجلة ((المعرفة))